المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٤٠٣ ـ ٤٦١

الشَّوَاشِيدُ وَدَوْرُهُم فِي الْحَرْبِ الإِيطَالِيَّةِ ـ اللِّيبِيَّةِ ١٩١١: ١٩٣٢م

رجب علي عبد المولى أحمد العبد(*)

المقدمـة

الشواشيد : هم الجواسيس والعملاء والخَوَنَة من أبناء الشعب الليبي ، الذين جنَّدَتْهم إيطاليا وقرَّبَتْهم إليها واستغلَّتْهم ضد الحركة الوطنية والمقاومة الليبية ، في أثناء احتلالها وسيطرتها على الأراضي الليبية . فمنذ أن بدأت إيطاليا تمهِّد لاحتلال طرابلس الغرب عام ١٩١١، وهي تحاول البحث عن بعض الزعامات المعادية للدولة العثمانية ، واستمالتها للوقوف بجانبها كي تعمل هذه الزعامات على تهيئة الرأي العام الليبي ، الذي كان يعاني من ظلم الأتراك ، لتقبُّل الوجود الإيطالي فوق أراضيه والانضمام إليه . إضافة إلى ذلك فإن إيطاليا كانت تحاول دائمًا استغلال الخلافات والصراعات القائمة بين الزعامات ومشايخ القبائل في ليبيا ؛ فكانَتْ تحاول دائمًا بثَّ المزيد والمزيد من الفُرْقة لتعميق الانقسامات بينهم ، محاوِلَةً استخدام السياسة الاستعمارية الأوربية اللئيمة ، وهي سياسة فَرِّقْ تَسُد ، التي كانت سمة من سمات الاستعمار الأوربي في جميع البلدان التي وقعت تحت سيطرته . فكان لهذا الأسلوب دور كبير في شق صفوف حركة المقاومة الليبية وإضعافها أمام الإيطاليين كي تكون هشة وضعيفة في أثناء الزحف الإيطالي داخل

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة المنيا .

البلاد . وقد استغلت إيطاليا هذه العملية بطرق شتى ؛ منها : تقريب بعض الزعامات منها ، فضلًا عن إعطائهم المال والسلاح ، وتوليتهم مناصب قيادية في البلاد ، وتوزيع الأسلحة عليهم لمواجهة معارضيهم في الداخل ، لأنها تعرف الكثير عن دواخل البلاد الليبية ، خاصة الصراع القبلي في الداخل . فكانت تقوم بإذكاء الصراعات الداخلية : مثل الصراع على السلطة أو السيطرة على الأراضي الزراعية أو أراضي المراعي ، فأدَّى ذلك إلى فَصْمِ عُرَى الوحدة الوطنية بين الليبيين ، مما جعل أسلوب تجنيد هذه العناصر المتصارعة ضد بعضها سهلًا في العمل مع الطليان ، واستخدامهم جواسيسَ وأعوانًا لها ضد حركة المقاومة الليبية في أثناء زحفها على البلاد ، وأيضًا ضد القبائل التي رفضت الانضواء تحت السيطرة الإيطالية .

كذلك كان للأسلوب الذي اتبعتْه إيطاليا من اتِّباع سياسة فَرِّقْ تَسُد ، وأيضًا إضعاف الروح المعنوية للمجاهدين عن طريق وسطاء بين المتعاونين معها يُرْسَلون إلى معسكرات المجاهدين لبث روح التقاعُس والتخاذل والهزيمة بين صفوفهم ، وأيضًا الفقر والجوع وقلة ذات اليد ، دورٌ أكبر لانضمام بعض الأهالي والعمل في خدمة الطليان . إضافة إلى ذلك فهناك بعض المدن قامت بمهادنة الطليان ، وذلك لمعرفتهم أنهم لا قِبَل لهم بمحاربتهم ، وأيضًا لنُدْرة الأسلحة والذخيرة . وكان نظير هذا التعاون مع الطليان ضد أبناء البلاد أنهم كانوا يُعْطُون مَن يتعاون معهم دقيقًا أو شعيرًا أو قطيعًا صغيرًا من الأغنام وناقة ، ومنهم مَن كان يُعطَى المناصب الإدارية تحت حماية السلطة الإيطالية له ، لمحاربة بني وطنهم والإرشاد عنهم وعن خططهم الحربية .

لكن هل تُلامُ إيطاليا على إيقاد نار الفتنة بين زعماء البلاد؟ إن مصلحتها تفرض عليها ذلك ، فكان الواجب على كل إيطالي يجري وراء مصلحة بلاده أن يسلك ذلك الطريق ، وأن يضع نصب عينيه المَثَل المعروف فَرِّقْ تَسُد ، وفى هذا لا معنى للسلوك الأخلاقي عند الاستعماريين .

وتهدف هذه الدراسة كشف ألاعيب الاستعمار الإيطالي، وفضْح أساليبه لتجنيد أبناء البلاد ومحاولته الدائمة لبث الفُرقة بينهم، لتحقيق مأربه وأطماعه الدنيئة للسيطرة على الأراضي الليبية، كما تهدف هذه الدراسة أيضًا توضيح نضال الشعب الليبي في سبيل مقاومة الاستعمار ورفض الكثير من أبنائه الدخول في العمالة مع الاستعمار، إضافة إلى فضح دور الجواسيس والخونة الذين تعاملوا مع الإيطاليين، ودخلوا في خدمتهم وباعوا وطنهم ودِينهم بجِفْنَة من الدنانير والدراهم والوعود الزائفة بالحصول على المناصب والزعامة على مناطقهم أو قبائلهم أو مساندتهم ضد أعدائهم من القبائل الأخرى، المتصارعة معهم على المراعي أو الأراضي. وقد استلزم هذا الموضوع دراسة مجموعة من القضايا، من بينها الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومنها تخلي تركيا أو أنصار العهد الجديد أنصار تركيا الفتاة وعدم مواجهتهم الاستعمار الإيطالي وتخليهم عن مساندة الشعب الليبي، وانسحاب قادتهم وجنودهم حاملين معهم عتادهم وأسلحتهم معهم، تاركين أبناء الشعب الليبي فريسة سهلة للإيطاليين، فضلًا عن أن إبقاءَهم بعضَ الجنود والقواد يدافعون عن طرابلس الغرب جنبًا إلى جنب مع أبناء ليبيا ضد الإيطاليين كان ذرًا للرماد في العيون، معتمدين في تسليحهم على ما كان يحصلون عليه من الدول المجاورة كمصر وتونس، أو كانوا يتحصلون عليه من الجنود الإيطاليين الذين كانوا يقعون في الأسْر في أثناء المعارك الحربية، إضافة إلى اعتمادهم على ما كانت تُخرِجه الأرض من محاصيل زراعية وثمار، وما كان يأتيهم عن طريق المساعدات الخارجية من الدُّوَل العربية والإسلامية التي كانت تساندهم وتساعدهم، واعتمادهم الأكبر على ما كان يأتي إليهم من مصر وتونس عبر الحدود بين البلدين.

أسلوب إيطاليا في تجنيد العملاء

إن ما أصاب ليبيا من سوء الإدارة والإهمال لهو أكثر مما أصاب أيَّة ولاية من الولايات التابعة للإمبراطورية العثمانية . ولم يفعل السلاطين العثمانيون خلال فترة السبعة والسبعين عامًا من حُكْمِهم المطلق (١٨٣٥ ـ ١٩١٢م) ـ يُطْلَق عليها فترة الحكم العثماني الثانية لليبيا ـ سوى فرض الضرائب ، بينما فعل الإيطاليون الكثير لكسب الأهالي إلى جانبهم مستغلين سخطهم على السلطات العثمانية ، وعوَّلت بعثاتهم على فقر البلاد والتطور الذى يمكن تحقيقه تحت إشراف سلطة مستنيرة ، ولإشعار الأهالي بالفوائد التي سيجنونها في المستقبل وزَّعوا الرشاوى على مَن لهم تأثير بين الليبيين ، فأسسَتْ إيطاليا مصرف روما وفروعه المحلية الكثيرة التي منحت المزارعين قروضًا بفوائد بسيطة ، كما أقامت متاجر تُباع فيها البضائع بأسعار زهيدة . وبالطبع فإن هذه الأساليب ساعدت الإيطاليين على الحصول على أنصار من بين العناصر الجشعة والمحتاجة من السكان[1] .

على ضوء ذلك بدأت إيطاليا تمهِّد لاحتلال ليبيا بالبحث عن بعض الزعامات واستمالتها واستغلال نفوذها في الدعاية لإيطاليا . كما كان للسياسة العثمانية في ليبيا التي عجزت عن تطوير البلاد وتحقيق نهضة متكافئة فيها ، ما ولَّدَ لدى الليبيين شعورًا بالعداء للسياسة العثمانية ، خاصةً الطبقة البرجوازية التي أخذت تتضرر من بعض الإصلاحات العثمانية ، مثل إدخال التجنيد الإجباري ، وفرض الضرائب على هذه الفئات بعد إلغاء الامتيازات القديمة . كما أدى قيام ثورة الاتحاد والترقي (La Revolution Le Comite et progres) سنة ١٩٠٨م إلى استغناء الاتحاديين

---

(١) ج. ف. أبوت : الحرب المقدسة في طرابلس الغرب ، ترجمة عبد الحفيظ الميار ، القاهرة ـ دار الفرجاني ١٩٩٣، ١٥٣.

عن خدمات كثير من الفئات المرتبطة بالعهد القديم (العهد الحميدي)[١] .

وقد فتحت هذه التطورات أمام الاستخبارات الإيطالية الباب للنفاذ داخل هذه الفئات الناقمة ، وتجنيد بعضها للعمل لمصلحة إيطاليا ومشاريعها المتنامية في ليبيا التي أخذت تنفذها بشكل جدي عن طريق مصرف روما . وكان من أوائل الذين تم تجنيدهم حسونة القرمانلي[٢] وأبناء عمر المنتصر ، وقد أعلن أحمد ضياء المنتصر صراحةً عن الأسباب التي جعلته ينحاز إلى العَدُو ، بقوله : (عندما جاء الشبان الأتراك ، وبسبب كرههم لأشياع العهد الحميدي فقد هاجموا أسرتنا . فأولا عند الانتخابات لمجلس المبعوثان انتخبت عضوًا عن سنجق الخمس وطرابلس ، ولكن لم أُعتَمَد من قبل حكومة الشبان الأتراك بحجة أنني لا أعرف اللغة التركية ، بينما اعتُمِد آخرون لا يعرفون اللغة التركية إلا قليلًا . وأيضًا أُقِلْت بدون وجه حقٍّ من منصبي كقائمقام لترهونة . ثم قيامهم بتجنيد بعض القتلة لقتل أخي أبي القاسم[٣] ، فتم قتله بطريقة بربرية في الشارع بعد أن وعدوا بتقديم الحماية للقاتل ...)[٤] .

---

(١) JEAN-PIERRE DERRIENNIC: *Le Moyen-Orient Au XX e siècle,* Seconde edition, Paris 1993, p.19.

(٢) كان حسونة باشا ـ سليل الأسرة القرمانلية التي كانت تحكم طرابلس ـ في ذلك الوقت عميدًا لبلدية طرابلس ، وكان دوره آنذاك في إطار الأفكار المطروحة حينها باحتمال قيام حكم ذاتي في البلاد ، شبيه بوضع (الباي) في تونس . ولم يزد دور الرجل في هذه المرحلة عن دور الوجاهة الموروثة التي لم يُعرَف عنه أنه أساء استعمالها للإضرار بالمواطنين . انظر : مذكرات جيوليتي (الأسرار السياسية والعسكرية لحرب ليبيا ١٩١١ ـ ١٩١٢) ، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي ، ط ٣، مصراتة ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ١٩٨٦، ٥٩.

(٣) تم قتل أبي القاسم المنتصر عام ١٩٠٩ على يد رمضان وحمد الشتيوي ، اللذين التجآ مع والدهما بعد ذلك إلى بني وليد وقضوا مدة طويلة هناك عند سعد بن عطية أحد أعيان ورفلة ، وخال عبد النبي بلخير أحد قادة الجهاد . انظر محمد المرزوقي : عبد النبي بلخير داهية السياسة وفارس الجهاد ، ليبيا ، تونس ـ الدار العربية للكتاب ١٩٧٨، ٧٢.

(٤) حبيب وداعة الحسناوي : منشور كانيفا : ملاحظات أولية حول الأبعاد الأيديولوجية للسياسة=

وجاء على لسانه أيضًا قوله : (... لحسن حظنا ، حدث وعرفنا أن إيطاليا قررت احتلال طرابلس ، فانضم أخي سالم وأنا إلى مصرف روما ، وأدنَّا علنًا كل شيء قام به الترك ضدنا وقدَّمنا للإيطاليين تعاونًا في احتلال مدينة طرابلس)[١] .

وكان أمام رجال العمالة الليبيين مهمة إقناع زعماء الجمعية السنوسية بالوقوف إلى جانب الإيطاليين في الحرب ضد الأتراك ، لقاء تعهُّد إيطاليا في حالة نجاحها بإغداق الأوسمة والألقاب عليهم ووضع مبالغ كبيرة من المال تحت تصرفهم . إلا أنه لم يُقَدَّر لذلك كله أن يتحقق[٢] .

وعلى ضوء ذلك سارت الجاسوسية الإيطالية في علاقتها بالسنوسيين في اتجاهين ؛ فحاولت من جهة أن تتوصل إلى إقامة علاقات ودية مع زعماء الجمعية عن طريق الرشاوى والوعود بالمناصب والمرتبات العالية ، لقاء الامتناع عن تحريض الشعب على المقاومة تحت راية الجهاد ، ولقاء الوقوف إلى جانب الطليان في حربهم مع الأتراك ، ومن جهة أخرى اتخذت الإجراءات لشل هيبة الجمعية السنوسية في عيون السكان ، ولهذه الغاية كان يُجْرَى التشكيك بصلاحية التعاليم الدينية السنوسية . وفي النهاية سيطر الاتجاه الثاني في نشاط العملاء الإيطاليين فوق أراضي الولاية[٣] .

=الاستعمارية الإيطالية تجاه العرب الليبيين ، مجلة الشهيد ، العدد الرابع ، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م ، ٥٥.

(١) نفسه ، ٥٦.

(٢) نيكولاي إيلشتين بروشين : تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩، ترجمة وتقديم د.عماد حاتم ، مراجعة د.ميلاد المقرحي ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٨، ١٠٠، ١٠١.

(٣) نيكولاي إيلشتين بروشين : تاريخ ليبيا في العصر الحديث (منتصف القرن السادس عشر ـ مطلع القرن العشرين) ، ترجمة وتقديم الدكتور عماد حاتم ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (سلسلة الدراسات المترجمة) ١٩٩١، ٣٩٠.

كما كان لتوقيع اتفاقية لوزان[١] بين الدولة العثمانية وإيطاليا في ١٨ من أكتوبر ١٩١٢م، دون شك، تأثير سلبي ومباشر على حركة المقاومة في ليبيا. وكان ذلك التأثير في الجبهة الغربية أعمق منه في الجبهة الشرقية، وذلك لاختلاف ظروف انتقال القيادة السياسية والعسكرية من السلطات العثمانية في كلا الجهتين[٢]، فقد حاولت السلطات الإيطالية استغلال ظروف التناقضات

---

(١) وقِّعت تركيا صلح لوزان عام ١٩١٢ عندما رأت أنها لا تستطيع مواصلة الحرب ضد إيطاليا، نظرًا لبداية الحرب البلقانية، لهذا لجأت إلى عقد الصلح معها. وفي ١٥ من أكتوبر عام ١٩١٢ وقِّعت اتفاقية تمهيدية (سرية)، وفي ١٨ من الشهر نفسه أبرمت اتفاقية السلم النهائية في لوزان، ولم تعترف تركيا شكليًا بالسيادة الإيطالية على ليبيا. ولم تتعهد إلا بسحب قواتها واستدعاء موظفيها من ليبيا.

واستنادًا إلى الاتفاقية الإيطالية التركية السرية التي أُبرِمت في ١٥ من أكتوبر عام ١٩١٢ صممت إيطاليا على استحالة إلغاء القانون الذي أعلن سيادتها على طرابلس الغرب وبرقة. وأعلنت تركيا من جانبها استحالة اعترافها الشكلي بهذه السيادة. وعليه تعهدت تركيا بإصدار فرمان سلطاني يمنح سكان طرابلس الغرب وبرقة (حكمًا ذاتيًا مطلقًا تامًا)، يؤمن لهما الانتقال إلى ظل القوانين الجديدة. بينما تعهدت إيطاليا بإعلان العفو العام وبمنح حرية الدين الإسلامي وبالاحتفاظ بالأوقاف، كذلك بتقبل الممثل التركي وتعيين لجنة بإسهام الوجهاء المحليين لإعداد جهاز مدني وإداري لهاتين المنطقتين. وتعهدت تركيا بعدم إرسال قواتها إلى طرابس الغرب وبرقة.

وفي الواقع لم تُرَاعَ أحكام اتفاقية الصلح التمهيدية التي أبرمت في ١٥ من أكتوبر عام ١٩١٢، التي نصت على إقامة حكم ثنائي إيطالي ـ تركي، من نوع خاص على ليبيا. واعتبرت إيطاليا ليبيا مستعمرة اعتيادية تابعة لها. إلا أن تركيا لم توافق على ذلك. إذ لم تتنازل تنازلًا تامًا عن حقوقها وسيادتها على طرابلس الغرب وبرقة إلا عقب الحرب العالمية الأولى، وذلك وفق اتفاقية صلح لوزان لعام ١٩٢٣. انظر فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني، مراجعة يوري روشين، موسكو ـ دار التقدم ١٩٧١، ٣٧١.

(٢) عندما هاجم الطليان ليبيا عام ١٩١١ أبقوا على وحدتها الإدارية. وهم لم يلجؤوا إلى تجزئتها إلى ولايتَيْ برقة وطرابلس إلا تحت ضغط عوامل عسكرية مؤقتة، وقد اضطروا بعد ذلك إلى إنشاء حكومة موحدة يعتمد سلطانها على وحدة البلاد كلها ويشرف عليها حاكم عام مقره مدينة طرابلس. انظر جميل عارف: صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام، ج ١، القاهرة ـ المكتب المصري الحديث ١٩٧٧، ٢٩٥.

والخلافات بين بعض الزعماء، التي نجمت عن خروج تركيا من البلاد، فتبنَّتْ سياسة (فَرِّقْ تَسُدْ) والاعتماد على بعض العناصر البارزة في بعض المناطق في فرْض سيطرتها على البلاد، ثم توظيف بعض العملاء من بين الزعماء من أجل توسيع رقعة الاحتلال والتوغل في المناطق الداخلية[١].

كما عَمِلَت القيادة الإيطالية بزعامة جولييتى على استغلال التناقضات بين زعماء السنوسية ورؤساء القبائل، فحاولت المخابرات الإيطالية أن تبذر بذور الشقاق بينهم، وساعدت بكل الوسائل على إثارة النزاع القبلي؛ فأوحت لشيوخ القبائل، خاصة في بَرْقَة، بأنهم لن يطيقوا مقاومة الغزو الإيطالي، وأن هذه المقاومة لا معنى لها في حد ذاتها، لأن إيطاليا حملت إلى البلاد الطمأنينة والازدهار ورفع مستوى حياة الأهالي. إلا أن جميع محاولات المخابرات والدعاية الإيطالية في إبطال تأثير السنوسيين بين سكان ولاية طرابلس باءت بالفشل[٢].

لقد تفنَّنت القيادة الإيطالية في تطبيق سياسة (فَرِّقْ تَسُدْ) بين أهالي البلاد، أحيانًا بتوزيع المال والهدايا وتشغيلهم في مناصب محددة، وأحيانًا بتوزيع السلاح على مجموعةٍ ما، وتشجيعها على القيام بعمل ما ضد مجموعة أخرى من الليبيين، وهكذا تضرب واحدًا بآخر إلى أن يُفْني بعضهم بعضًا[٣].

---

(١) عبد الله علي إبراهيم: آثار صلح لوزان على حركة الجهاد، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي (١٩١١ - ١٩٤٣م)، ج ٢، طرابلس - منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨، ١١٤، ١١٥.

(٢) نيكولاي إيلشتين بروشين: تاريخ ليبيا في العصر الحديث (منتصف القرن السادس عشر - مطلع القرن العشرين)، ٣٩١.

(٣) محمد علي التركي: معركة القبلة، طرابلس - منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨، ٢٧٣.

ولقد أشاد غراتسياني بهذه السياسة قائلًا: (لقد تم تطبيق نظرية فرق تسد تطبيقًا تامًا على أحسن الوجوه، تلك النظرية التي كانت بسبب ظروف المكان والزمان والعمل عظيمة النفع، لذلك اتبعْناها)[1].

وقد كان لهذه السياسة نتائج شديدة الخطورة على حركة الجهاد؛ فقد حاول العدُو أن يبعث المنازعات القبلية ويذكِّي الصراع على السلطة، ومد مناطق النفوذ بين الزعماء ورؤساء المجاهدين في المناطق المختلفة مستغلًا عملاءه التقليديين، والعملاء الجدد الذين استطاع تجنيدهم من رجال الصف الثاني الذين كانوا يطمحون إلى الزعامة وتولِّي وظائف المدير والقائمقام ومشايخ القبائل في مناطقهم، ومنافسة الزعامات التقليدية على هذه الوظائف. وعن طريق هذه السياسة استطاع العدو جذب بعض عناصر التأثير في الحركة إلى جانبه، والتأثير عليها بالمنح والعطايا والمرتبات، والدفع بها في اتجاه فَصْم عُرى الوحدة الوطنية، والدفع ببعض الأفراد ـ سواء عن وعي أو عن غير وعي ـ إلى ارتكاب أعمال استفزازية ضد بعض الزعامات والمناطق، مما ساعد العدو على شق وحدة المقاومة، وتجنيد بعض القبائل وتسليحها واستخدامها في حرب قبائل أخرى، الأمر الذي جعل حركة المقاومة تفقد الكثير من عناصر قوتها خاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، والحروب الأهلية التي بدأت تشهدها بعض المحاور الرئيسية في الجبهة الوطنية كمنطقة الجبل الغربي ومحور مصراتة وورفلة، وعندما حقق العدو أغراضه في هذا المجال أسقط من برنامجه ـ للسيطرة على البلاد ـ سياسة ما كان يُسَمَّى بسياسة الزعماء، واعتمد سياسة جديدة ظهرت بشكل واضح وجليٍّ في المرحلة الفاشيستية، ونعني بها التعامل مع القاعدة الشعبية بشكل مباشر بعد أن فشل العملاء من الأعيان في ترويضها وإنهاء المقاومة والتسليم للعدو[2].

---

(١) نفسه، هامش ٢٧٢.

(٢) حبيب وداعة الحسناوي: مرجع سابق، ٦٠، ٦١.

بعد هزيمة سليمان الباروني عام ١٩١٣ في معركة جندوبة ، تمكَّن الإيطاليون من تحطيم المراكز الأخرى للمقاومة في طرابلس . وقد ساعدت على ذلك إلى حد ما خيانة عدد من الإقطاعيين من أمثال : عبد الهادي بن قطنش الذي احتل الإيطاليون بمساعدته بني وليد ، واستحق بذلك أن ينصِّبه الإيطاليون متصرفًا على بني وليد ، وعبد النبي بلخير الذي ساعد الإيطاليين على الاتفاق على (روح الصحراء الشرير) ، حسبما كانوا يسمُّون سيف النصر . لقد هيأ عبد النبي بلخير لقاء الإيطاليين بسيف النصر[١] . وبنتيجة المفاوضات التي امتدت منذ شهر مارس حتى شهر ديسمبر سنة ١٩١٣م عُيِّنَ الأخير متصرفًا في جفارة[٢] ، بينما ترقَّى عبد النبي بلخير إلى درجة مستشار لقاء خدماته للإيطاليين[٣] .

وهناك العديد من الأفراد ممن تعاونوا مع القوات الإيطالية ، كذلك مع الإدارة الإيطالية من الليبيين ، كذلك هناك من خدم في صفوف القوات الإيطالية من

---

(١) يقول الطاهر الزاوي في كتابه جهاد الأبطال : (إن عبد النبي ذهب إلى سيف النصر في هون ، مرسلًا من قبل الطليان ، وذكر له من عدالة الطليان وحسن نيتهم نحو سيف النصر ما جعله يصدق ، وجاء معه إلى بني وليد فوجدوا الطليان احتلوها بواسطة عبد الهادي بن قطنش فنزلوا في شميخ . وقام عبد النبي بدور الوسيط بين الطليان وسيف النصر واجتمعوا بالحاكم الإيطالي في شعبة الكرمة بوادي بني وليد ، واتفقوا على أن يكون سيف النصر متصرفًا في الجفرة) . لمزيد من التفاصيل انظر محمد المرزوقي : عبد النبي بلخير داهية السياسة وفارس الجهاد ، ٦٨ وما بعدها .

(٢) تشير بعض المصادر إلى أن الذي دفع سيف النصر بهذا التوجه المؤقت نحو الإيطاليين هو نقمته على الدولة العثمانية ، التي قتلت أباه وعمه منذ عامي ١٨٤١ و ١٨٤٢ ، أضف إلى ذلك شعوره بالغيرة من الأهمية التي نالتها عائلة المنتصر أحد أهم منافسيه بسِرْت ، كل ذلك كان من بين أهم العوامل في تحديد هذا الاتجاه وانضمامه للطليان . انظر أحمد عطية مدلل : المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي وتأثيرات الأوضاع الدولية عليها ، أغسطس ١٩١٤ ـ أبريل ١٩١٥ ، مراجعة د.عقيل محمد البربار ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٩ ، هامش ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) نيكولاي إيلشتين بروشين : مرجع سابق ، ١٣٠ . وانظر أيضًا محمد المرزوقي : المرجع السابق ، ٦٩ .

الليبيين أنفسهم[١]، كما كانت هناك حركة جاسوسية بين الإيطاليين والمجاهدين، وذلك لرصد تحركات المجاهدين قبل نشوب المعارك وبعد انتهائها وانسحاب المجاهدين والإيطاليين[٢].

فبينما تخاطر الأغلبية الهائلة من الأهالي في قتال الغزاة، هناك أيضًا مَن كانوا يحاولون تعبئة جيوبهم بالمال بالعمل جواسيسَ للإيطاليين، أو كما يعبِّر عنها العرب بكلمة (بياع) أي مَن باع بلده[٣].

فالجواسيس الذين كانوا يساعدون السلطة العسكرية في فرض حكم الإرهاب هم في أغلب الأحيان يتكوَّنون من نساء ساقطات وأطفال، أو النموذج المشهور لليهود الإفريقيين، وكان يكفي أن يُدلي هؤلاء بتهمة مغرضة ضد شخص ما لتجلِب له الموت، وإذا لم يكن المُخبِر متأكدًا من أقواله تُخَفَّف العقوبة إلى النفي أو السجن[٤].

ومن حين لآخر كان يقبض على أفراد يمارسون هذه التجارة البغيضة، ويقتادون إلى مقر القيادة وأذرعهم مقيَّدة خلف ظهورهم.

وها هو الصحفي والكاتب الإنجليزي (جي. أف. أبوت)، الذي كان مرافقًا لتغطية أحداث الغزو الإيطالي على ليبيا، يذكر: (أنه ذات مساء شاهد خمسة

---

(١) موسوعة روايات الجهاد رقم ٣٥، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٩٦، ٩٧. مقابلة مع المجاهد أحمد عمرو الغشتالي، شريط رقم ٦/ ١٣٩.

(٢) موسوعة رقم ٣٥، شريط رقم ٦/ ١٤٠، مقابلة مع المجاهد أحمد علي الزواوي، ١٢٤.

(٣) جي. أف. أبوت: الجهاد في طرابلس، ترجمة د.عبد القادر المحيشي، مراجعة د.محمد عبد الوهاب سيد أحمد، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٠، ٢٠٣.

(٤) عبد الرحمن عزام: كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية، ترجمه عن الألمانية د.عماد الدين غانم، مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد الأول، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٦، ٥٦.

مقتادين من سواني بنى آدم على أقدامهم بواسطة اثنين من الخيالة ، سلَّماهم للسجان ، فك وثاق أذرعهم ، وأحصاهم بصوت عالٍ : (واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة) ، ودفعهم واحدًا إثر آخر عبر الباب الصغير . ولاحقهم المجاهدون في الفناء بالشتائم) . وفي مناسبة أخرى أُحضِر جاسوس منفردًا ، أَمسك الحارس بأحد أطراف الحبل الذي قُيِّدَتْ به يداه ، وقاده أعلى الدروج إلى غرفة القائد . فقام شيخ عربي كان يقف فوق الشرفة بصَفْعه والبصق على وجهه ، وعيَّره بكلمة (كلب) ، ومن المحتمل أنه كان سيصيبه إصابة خطيرة لولا تدخُّل أحد الجنود في الوقت المناسب[1] .

وفي ليلة الرابع عشر من أبريل عام ١٩١٢م كشف الليبيون أمر اثنين من الجواسيس العاملين في خدمة الاستخبارات الإيطالية . وكانا قد كُلِّفا بأن يندسَّا بين القبائل لمحاولة تقديم الهدايا لمشايخها وإقناعهم بالاستمالة لإيطاليا . غير أن البدو ما إن بدأ هذان العميلان في الاتصال بهم حتى أسرعوا بتبليغ السلطات العثمانية المعنية عنهما ، وبعدها أسرع الملازم (رمزي بك) القائد التركي إلى المكان الذي أُخبِر أنهما موجودان فيه ، حيث قيل له إنهما كانا نائمين في تلك اللحظة في إحدى الخيام ، مندسَّيْن بين جماعة البدو ، فاتجه إلى هناك ، ودخل الخيمة في ظلمة الليل وهم نيام ، حيث أطفأ مصباحه وصاح فجأة قائلًا بأعلى صوته : (إنهما هنا)[2] .

وفُوجِئ الجاسوسان وتلعثما ، ثم ما لبثا أن وشى كلٌّ منهما بصاحبه في الحال . وقد اعترف أولهما بأنه قد قام بقطع الأسلاك التلغرافية وتخريبها بين بنغازي وإجدابيا . وبعد أن ضُرِبا بالعصي ضربًا مبرحًا ، اعترف هذا الشخص بأنه قد قَبض

---

(١) جي . أف . أبوت : المرجع السابق ، ٢٠٤.

(٢) جورج ريمون : من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا ، نقله عن الفرنسية وحققه وقدَّم له محمد عبد الكريم الوافي ، ط ٢، القاهرة ـ دار الفرجاني ١٩٨٢، ٢٧٠.

ثمن خيانته ثلاث قطع (نابليون) ذهبية من العملة الفرنسية ، أما الآخر فقد حاول أن ينفي بعد ذلك التهم الموجهة إليه رغم كل الدلائل التي تشير إلى تجسسه . وقد تقرر أن يتم إعدامهما ومعهم جاسوس ثالث متعاون معهم ، سبق أنْ قُبِض عليه من قبل متلبسًا بجريمة التجسُّس ، غير أن المقدم عزيز المصري بك ـ قائد المعسكر ـ كان قد عفى عنه ، إلا أن هذا الجاسوس ظل يواصل خيانته من جديد فكان الحكم عليه بالموت[1] .

وفي الثاني من يونيو عام ١٩١٢م لم يكن نزول الإيطاليين بسوسة مباغتًا للمجاهدين ، بل كان متوقعًا ؛ فقَبْل وصولهم إلى هناك أُنزل أحد مواطني درنة ، الذي كان يعمل جاسوسًا للإيطاليين ، على الساحل ، وكانت مهمته إغراء شيوخ البادية هناك باستقبال السفن الإيطالية والتفاوض مع الإيطاليين ، فإذا ما فعلوا ذلك سيتأكدون من شهامة الإيطاليين وكرمهم قولًا وعملًا . وكالعادة أُلقِيَ القبض على ذلك الجاسوس وتم تسليمه للمدير ، وباستجوابه اتضح أنه متفقٌ مع الإيطاليين على إشارات محددة يُطمْئِن بها الإيطاليين على سلامة النزول ، فأجبره العرب على تأديتها ، فلما رآها البحارة الإيطاليون نزلوا إلى الساحل فأصلاهم العرب نارًا حامية ، الأمر الذي جعلهم يهرعون إلى قواربهم ركضًا . وردًا على هذا الاستقبال غير الودي من جانب العرب أخذوا يدكون المنطقة الساحلية بأسرها وعلى غير هدى طوال اليوم[2] .

وفي مقابلة قام بها مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي مع المجاهد جبريل موسى محمد البرعصي ، تحدَّث في بداية حديثه عن عدة أشخاص عملوا مع

---

(١) نفسه ، ٢٧١.

(٢) مذكرات أنور باشا في طرابلس الغرب ، تقديم وترجمة عبد المولى صالح الحرير ، مراجعة حبيب وداعة الحسناوي ، طرابلس ـ منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩م ، ٧٤. وانظر أيضًا : أورخان قول أوغلو : مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا ، ترجمة وجدي كدك ، مراجعة د.عماد حاتم ، طرابلس ـ منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩، ٧٤، ٧٥.

الطليان جواسيس أمثال[١].

وذكر أن السبب في انضمامهم للطليان كان الفقر والجوع ثم الحرب، لأنهم كانوا لا يملكون حتى السلاح للدفاع عن أنفسهم، وعندما سئل عن مناطق رَحَّبت بالطليان ذكر أن أهل العبيدات رحبوا بالطليان لأنهم لا يريدون الحرب لأنها متعبة وشاقة، وعاملهم الطليان معاملة طيبة فتركوا لهم الحرية في الذهاب والإياب، والسماح لهم بالزراعة وترشيح الشيخ المستشار، ومقابل ذلك عمل الكبار منهم مع الحكومة الإيطالية[٢].

وكان ثمن مَن يستسلم للطليان أنهم كانوا يعطونه الدقيق والشعير والأموال، وإن شئت فقل عشر نعجات وناقة، خاصة بالنسبة للمهاجرين، وانصاع للإغراءات كثيرون منهم العمارنة، وكذلك رجل اسمه (محمد بوغاليه)[٣].

---

(١) وهم:

ـ طاهر المهير برعصي، كان ضابطًا مع أحمد الشريف، وانضم للطليان وعمل مع الاستخبارات الإيطالية ووشى بالمجاهدين، وهو السبب في اعتقال عمر المختار.

ـ محفوظ بونصر الله، وهو خزعجه، كان ضابطًا في الدور ثم عمل مع الطليان.

ـ بومرضية، وهو خزعجه، وعمل مع الطليان أيضًا.

ـ السعيطي بويادم، كان من المحافظية (قوات المجاهدين)، ثم عمل مع الطليان وهو من قبيلة اليتامة.

ثم ذكر أن قادة كبارًا جاهدوا ثم أطاعوا الطليان، ثم ردوا وجاهدوا مرة أخرى، ومنهم:

ـ حمد بوخير الله، كان مع الطليان ثم جاء إلى المحافظية، وبقي حتى هاجر.

ـ محمد بوعثمان الأصميع أطلين، عمل عسكريًا مع الطليان، وجاء بحصانه وبندقيته وظل مع المحاربين إلى أن انتهى عمر المختار، وبعد ذلك هاجر.

ـ سعيد بوحويدش، وهو عريفي، عمل مع الطليان ورجع للدور حتى هاجر.

(٢) موسوعة روايات الجهاد الشفوية، مجلد رقم ٢٧، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١، ١٩، ٢٠، مقابلة مع المجاهد جبريل موسى البرعصي، شريط رقم ٣.

(٣) موسوعة روايات الجهاد الشفوية، مجلد رقم ٢٧، شريط رقم ٩/ ١٠، مقابلة مع المجاهد حمد عبد الرازق العقيلي، ٥٥، ٥٦.

وأيضًا كان أهل المدن أول من استسلم للطليان، ومن القبائل هناك الفواخر والمغاربة أيضًا. أمَّا عن الأفراد الذين قاتلوا لصالح العدو فثَمَّة رجل اسمه (بوحلفاية)، كان يطارد المجاهدين ويسلبهم أموالهم وسلاحهم وهو مغربي، كذلك (الكيلاني الضريريط)، وهو كذلك من العملاء الذين أوغلوا في العمالة، وأيضًا أحمد الشارف وخالد القيصة[١]، كذلك شخص يُدْعَى (بوالمهدى)، وهو موظف قديم كان يعمل مع الترك، لكنه ما لبث أن خان الأمانة بعد أن كانت شهرته بين العرب الليبيين أنه لا يتحرك إلا والحرس بجانبه، وله حصان مزيَّن ونياشين مختلفة، وبعد دخوله مع الطليان قال فيه العرب:

بعد السيف والنيشان ظهرت كلب يا بو المهدي[٢]

وأيضًا كان أول من انضم للطليان ورحَّب بهم أيضًا قبيلة الجبالة، وبعد ذلك منطقة الزاوية، واختلف الجبالة مع الزنتان بسبب السلطة، كل يريد أن يحكم الآخر. وكانوا يقولون إن الجبالية ستين عيلة نشربوا فى شيشة ولا نحملوش الكون من خربيشه. ووصل الأمر إلى أن قادة الجبالية كوَّنوا عدة باندات (فرق عسكرية) ضد الليبيين لصالح الطليان[٣].

وهناك بعض من انضم للطليان بسبب إغراءات الطليان لهم فانقلبوا على المجاهدين، ومنهم خالد القيصة، والشارف الغرياني، والظافر، وكان السبب في رِدَّتهم هو الطمع وحب المال. كما أن القبائل التي انحازت مع الطليان قبائل المغاربة، وبعضهم تجنَّسوا بالجنسية الإيطالية وصاهروا الطليان، وكان يقال إن قبيلة الحاسة فيها أكبر بصاص على المجاهدين لصالح الطليان[٤].

---

(١) المصدر نفسه، مجلد ٢٧، شريط رقم ١١، مقابلة مع المجاهد خليفة إبراهيم الفرجاني، ٦٣.

(٢) نفسه، مجلد ٢٧، شريط رقم ١٢، مقابلة مع المجاهد عمر محمد الشيخي، ٦٤، ٦٥.

(٣) نفسه، مجلد ٢٧، مقابلة مع المجاهد أمحمد الصويعي محمد، ٩٩.

(٤) نفسه، مجلد ٢٧، شريط رقم ٢٦، ١٣٧.

ومن خلال التشديد في الأساس على شق صفوف قبيلة المغاربة التي كان يرأسها صالح لطيوش، استخدم الإيطاليون شيخًا سنوسيًا خائنًا يُدْعَى (شريف الغرياني)، الذي تأتَّى له أن يقنع ثلاثة عشر شيخًا من كتلة الشماخ بالخضوع للسلطات الإيطالية[١].

وكان من بين المتعاونين (الليبيين المطلينين) ـ على حد تسمية المجاهدين لهم ـ أنماط مختلفة من التعاون مع الإيطاليين، بَدءًا من السلبية والابتعاد عن المشاركة الفعالة في صفوف المقاومة، حتى التعاون الوثيق مع السلطات الإيطالية على هيئة أدلاء ومخبرين وموظفين وإداريين ووغيرهم، وقد دخل كثير من البدو سلك الجيش أو الشرطة الإيطالية من أجل أن يحصلوا على لقمة العيش[٢].

علاوة على أن هناك عددًا كبيرًا من رؤساء القبائل الليبية ورؤساء بعض الجمعيات الإسلامية قَبِل الرشاوى وخانوا الحركة الوطنية وانصرفوا عنها، فإنَّ أسر المجاهدين لم تحتمل مصاعب الحرب الإيطالية، وما نتج عنها من مجاعة، فعادت إلى الواحات التي هجرتها أملًا في الحصول على الحبوب وعلى المساعدة المالية من الإيطاليين. وعندما أَعلن جنرالهم «كانيفا» قائد الجيوش الإيطالية منشورًا في ١٥ من يناير ١٩١٢ شد إليه أنظار بعض المناضلين، وكان مما نص عليه المنشور: «... أمَّا من يسلم نفسه ويحضر ومعه بندقية وذخيرة سينال مكافأة ويعطى ٢٠ فرنكًا وكيسًا من القمح أو الشعير حسب رغبته»، مما كان له أثره في شق صفوف المجاهدين في المقاومة[٣].

---

(١) نيكولاي إيلشتين بروشين: مرجع سابق، ٢٠٣.

(٢) نفسه، ١٩٩.

(٣) عبد العظيم مهيدي أحمد صميدة: العلاقات المصرية الليبية ١٩٤٥ ـ ١٩٧٣، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة المنيا، ١٩٩٧، ١١. وللمزيد عن منشور كارلو كانيفا انظر: ج. ف. أبوت: الحرب المقدسة في طرابلس الغرب، ٢٥٨، ٢٥٩.

ولإضعاف الروح المعنوية للمجاهدين يَذكر المجاهد أحمد موسى العريبي أن معركة بلال معركة مهمة جدًا، فقد جاءتنا جماعة من الطليان، وجاءوا جانبنا ومعهم خالد القيصة وعبد الله أبو حليمة وهما من، وكانا جاسوسَيْنْ للطليان، وقالا لنا: (عليكم تسليم أنفسكم للحكومة، ونحن ننصحكم، وإلا تكون مسئوليتكم على أنفسكم، ونحن بريئان من دمائكم، والذي يريد منكم أن يهاجر فالطريق مفتوحة أمامه، وعليكم بتجهيز الضيافة للحكومة). لكننا قررنا الجهاد وعدم التسليم، فإما حياة سعيدة وإما استشهاد في سبيل الله، ووضعنا خطة حكيمة بوضع الخيل في الأماكن المنخفضة، والمجاهدون بقَوْا على بئر بلال، وأحكَمْنا الخطة في منطقة القطيفية، وظنوا منها أننا مستسلمون ودخلنا تحت سيطرتهم، واستطاع المجاهدون إطلاق النار على الدبابات بمجرد ظهورها، حتى أنهم أبادوها جميعًا، وقُتِل قائد الدبابات نفسه وحوالي ٢٠ جنديًا إيطاليًا، واستُشهِد من المجاهدين المهدي الحرنة وناصر الأعمى وعبد السلام إدريس وصالح الأطيوش قائد المعركة[1].

وكان هذا الأسلوب من قبل المجاهدين يعتمد في أساسه على مراقبة تحرك العدو من خلال فرق استطلاع، أسمَوْها حينئذ (الشوافة) أو (البصاصة)، بغرض إعطاء فرصة للمجاهدين بنصب الكمائن من خلال التخفي بين الصخور والشجيرات، والتواري عن الأنظار لاقتناصه، حتى لا تتمكن فرقته أحيانًا من معرفة الجهة التي انطلق منها الرصاص، فتصاب بالذعر وتضطر لمغادرة المكان، وكثيرًا يستطيع عدد محدود من المجاهدين إثارة الرعب والفزع في قوة معادية تفوقهم عددًا وعُدَّة، فتضطر نتيجة للمفاجأة غير المتوقعة إلى تركْ أمتعتهم والفرار بجلدهم، أو التخفي والعُزُوف عن المواجهة إذا كان الوقت ليلًا، ذلك أن كل جندي يعلم مسبقًا بأن

---

(1) موسوعة روايات الجهاد الشفوية، مجلد رقم ٢٧، شريط رقم ٢٦، ١٣٥: ١٣٨.

قائده لن يراه تحت جنح الظلام حتى يمكن أن يوجِّه إليه لومًا أو عتابًا ، وهو نوع من الحرب طبَّقه المجاهدون وأفادوا من تنفيذه ، وتناسب قلةَ عددهم ونقص ذخيرتهم . ومما ساعد في نجاح هذا النوع من الحرب طبيعة البلاد المتميزة بصحرائها الشاسعة وندرة المياه فيها ، بالإضافة إلى جبالها المتنوعة وصخورها المتعددة وما يتخللها من أودية وهضاب وعرة[1] .

في مقابلة مع المجاهد حسين صالح موسى الأوجلي ، عن كيفية حصول الطليان على الأخبار عن الدور وتحركاته فذكر : (أنه كان بواسطة جواسيس من عامَّة الناس يدخلون الأدوار بطريقة مجمع الأخبار عن المجاهدين)[2] .

كما كان هناك أشخاص متعاونون مع العدُو ، الذي استخدمهم جواسيسَ مثل المدعو عبد الكافي ، وأيضًا كان هناك شخص يمدح الطليان لأنه متعاون معهم ، يُدعَى الشاعر (بوشهاوي) ، وكان هذا الشاعر يتباهى بتعاونه مع الطليان مردِّدًا بعض أبيات الشعر التي تبيِّن وضعه ومكانته بين قومه ، فقال :

شيخ أمجنس في كل إقرانات أيونس ما هو كيف إلا أمغير إكنس باطل من الدوران ونايخ
شيخ مشايخ برنوس الزقره يثنى فوق كنادر فرتيسيه

رد عليه أحد الشعراء المجاهدين :

يا أبو شهاوي وحق النور الضاوي أن تأكل الندم بعد الهزاوي

وقال مذكِّرًا أبا شهاوي ببعض أيام ماضيه ، فقال له :

أنسيت الجيه والركبة على البغالية متقنع تقنيع وليه متصيف من الموت وخايف
شندى لك وحده معبيه غير أنت السيئ ورأسك دايخ

---

(١) أحمد عطية مدلل : مرجع سبق ذكره ، ٩٦، ٩٧.

(٢) موسوعة روايات المجاهدين الشفوية ، مجلد رقم ٢٨، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١، ٤٨، لقاء مع المجاهد حسين صالح موسى الأوجلي ، شريط رقم ٣/ ٦٠.

وبالفعل كان مصير هذا الشاعر الخائن أن قُتِل برصاصة مجهولة[١].

وقد ذكر المجاهد محمد مفتاح عثمان التريه أن أبا شهاوي هذا ضُبِط ونُقِل إلى الدور، فرأى القائدُ قجه السوداني ـ قائد من قواد المقاومة ـ إعدامه، لكن المغاربة عارضوا ذلك وأصروا على أن يتكفل به بولقمة الشبلي، الذي أحضره إلى النجع وبات ليلة بالدور وظل يسامر مع بولقمة، وبعدها سرق بندقيته في آخر الليل وذهب إلى شاطئ البحر عند منطقة المرة، فخاف واختفى هناك بعد أن قَتَل اثنين من رجال الدور، وخرج مع الشط وذهب للطليان، وأخبرهم بأنه قَتل اثنين من الدور. فرجعت الحكومة الإيطالية ووجدت الناس المقتولين فتأكدوا من صحة كلامه، وها هو يردد الشعر على الجماعة:

ماضي كيفك يا بوشنه عايش بمعيشة دونيه وكالت خبزه بعونه مزقارة بين لشاديه
ناحوش لدراز يجبنه للصبح وهو فيه ضويه لباس الزقرة[٢] يثنيه فوق كنادر فرنيزيه
والبرطا فوق أحذاي فخوش كاغط بوخمسين وميه وأخرى زاد أنديرواطنه فوق غزيرنصيه
ماني كيف يا بوشنه عايش في معيشة دونية.

فرد عليه المجاهدون:

أنسيت الجيه والركبة ع البغالية متقنع وليه مستفر من الموت
جابوك عايل الرسمية والبارود يدير صرايف يا عين الفراقنة القوية فيك وجه وما لزت تشايخ

ورد عليه المجاهدون مرة أخرى فقالوا:

راهن يجنك مفاويض من الغير ما هنش منك
إلا أنت حذاوي تمزقز كما كلب ميص من ميص راوي[٣]

---

(١) نفسه، مجلد ٢٨، مقابلة مع المجاهد عيسى سعد طاهر، شريط رقم ٣/ ٧٣، ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) الزقرة أي البرنوصي.

(٣) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٨، مقابلة مع المجاهد محمد مفتاح عثمان التريه، ٢٢٦.

وعلى ما يبدو فإن (بو شهاوى) هذا كان مشهورًا بين المجاهدين بخيانته وانضمامه للطليان ، فما مِن مجاهدٍ يتحدث عن الخونة إلا يذكره . فها هو المجاهد عمر محمد الشيخي يتذكره عندما تم أسرُه من قِبَل المجاهدين ، وكان في إحدى جلساته معهم يحكي لهم ويلعب معهم (السيرة) ، وهي لعبة شعبية ، يقول طالبًا النجدة من الطليان لفك أسره :

بالك على غفلة إيجي مطلق سبيب[1] طاليا مول النعال محلق

وفعلًا حدثت معركة بين المجاهدين والطليان ، استطاع بعدها الفرار والعودة للطليان ، وأصبح كاوليري مع الطليان ، فيقول المجاهدون عنه بعد أن أصبح مبعوثًا للطليان :

مبعوثان وشيخ مشايخ حلما فارغ يفزع غير أوكال طبار

فرد عليهم بوشهاوي :

مبعوثان وشيخ العمدة والطليان يقوى زنده
وأنت باللى باركندا رأسك دايخ باطل من الدوران ونايخ[2]

وهناك نموذج ثانٍ من الشِّعر ، بمناسبة أن قبائل الفواخر سلَّمتهم إيطاليا السلاح للتصدي للمجاهدين . فقال أحد المخلصين منددًا بالشخص الذي يرفع السلاح في وجه المجاهدين حتى يرضِي الطليان :

يا كلب لابس بندقية وأجر يدي وماشي تحارب في عساكر سيدي
بندقة ووشاحة وراكب هجين اتقول في درجاحه

فقال الفاخري المتعاون مع الطليان ما يلي :

---

(١) سبيب أي مجموعة من الأفراد مهمتهم جمع المعلومات من العدو .

(٢) موسوعة روايات الجهاد ، مجلد رقم ٢٧، شريط رقم ١٢، مقابلة مع المجاهد عمر محمد الشيخي ، ٦٦.

واخد أمـري على نجعـــي ونحـــارب بيـــــدي

واين ينطري نغوز[١] هو وأعلامه نجد عليه بكرهه حديدى

فرد المجاهد عليه وقال :

على الله العلامة أتسير له تقعيده ويجيبك العبيد[٢] أتقولها يا سيدي

وفعلًا حدث هذا ؛ ذات يوم جاء المجاهدون بقيادة قجه السوداني ، وحاصر أفراد قبيلة الفواخر المتعاونين مع الطليان ، ونقلهم بالعشوة من مكان إقامتهم السابقة إلى مقر الدور ، واستدعى الشعراء وأمر الشاعرَيْن بالتحاور أمامه ، ثم أمر بأخذ ٢/٥ من أموال الشاعر الموالي للطليان ومواشيه ، وأطلق صراح الشاعر الآخر[٣] .

وعقب إعلان الجمهورية الطرابلسية في ١٨ من نوفمبر عام ١٩١٨م ، فإن إيطاليا كانت تأمل في إفساد أي تعاون أو إخاء يمكن أن يتنامى فيصنع أمَّة موحَّدة قادرة على المواجهة الحقيقية ، لهذا فقد ثابرت خلال فترة الترقُّب والانتظار التي أعقبت إعلان الجمهورية الطرابلسية ، في استخدام وسائل التسلل السياسية ، وهي بالطبع أخطر ـ في حالة نجاحها ـ في التأثير على المعنويات القتالية للمجاهدين ، وربما في تفتيت عُرَى الوحدة الوطنية التي تحاول القيادات بناءها عن طريق التحالف الجمهوري ، وقد تمكَّنت الحكومة الإيطالية من استمالة (عبد القادر الغناي) ، الذي كُلِّفَ بقيادة جيوش الجمهورية خلفًا لإسحاق باشا ، وقد تمثَّل نجاحها في عقد عدة اتصالات فردية معه ، دون علم حكومة الجمهورية[٤] .

---

(١) نغوز هو قائد المجاهدين ، يسمى رمضان المهشهش .

(٢) العبيد يعني قجه السوداني .

(٣) موسوعة روايات الجهاد الشفوية ، مجلد ٢٨، مقابلة مع المجاهد عيسى سعد طاهر ، شريط رقم ٣/ ٧٣، ٦٥.

(٤) عمرو سعيد بغني : حركة الجهاد الليبي خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢١م ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨، ٢٣١.

وقد طمع الإيطاليون في استمالة الغناي إليهم بواسطة أحمد المنتصر، الذي نجح في استقطابه إلى مدينة طرابلس على ظهر مدمرة إيطالية، بعد أن مكّنهم من احتلال الزاوية في أول شهر يناير عام ١٩١٩ دون قتال، في الوقت الذي كان الشيخ محمد فرحات الزاوي قد زار الزاوية وبقي فيها عدة أيام، عاد بعدها إلى طرابلس بعد أن وقف على عملية احتلال الزاوية من قبل الإيطاليين، وكان سفر الشيخ محمد فرحات إلى هناك قد جاء بأمر من السلطات الإيطالية التي أوفدته إلى الزاوية على ظهر سفينة إيطالية، وقد شهد اجتماعًا بميدان الزاوية، وخطب حسن المصراتي قائمقام الزاوية في الناس، موضحًا لهم: (أنه حصل صُلح مع الطليان، ونبَّه عسكر المجاهدين بلزوم الهدوء وعدم القيام بأي حركة عدائية ضد الطليان، والذي يقوم بأي حركة عدائية يُعدَم)[1].

وكانت نتيجة ذلك وقوع فوضى بين صفوف المجاهدين، وانسحاب بعض الضباط والجنود الموالين لعبد القادر من مواقعهم على خط النار في الزاوية، وانضمامهم معه إلى الصفوف الإيطالية، بعد أن تمكَّن بعض الضباط المعترضين على سياسة الغناي مثل: عبد الله تامسكت وعبد العاطي الجرم وغيرهما، من الإفلات من الأسْر والانسحاب بمن تبعهم من المجاهدين الرافضين لمحاولات الغناي الاستسلامية[2].

في نوفمبر عام ١٩١٨ عقب انتهاء العمليات العسكرية والحربية في أوربا، أنزلت إيطاليا إلى طرابلس الغرب جيشًا مؤلَّفًا من ٨٠ ألف جندي، وبدأت مفاوضات مع رؤساء البدو في غربي ليبيا، باذلة الجهود لدفعهم إلى الاستسلام، إلا أن المفاوضات لم تنجح، فاستأنفت إيطاليا العمليات الحربية في فبراير ١٩١٩.

---

(١) محمد أمحمد الطوير: الشيخ محمد فرحات الزاوي أحد قادة الجهاد الليبي ضد الغزاة الإيطاليين، ط ١، مصراتة ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ١٩٩٣، ٨٨، ٨٩.

(٢) عمرو سعيد بغني: حركة الجهاد الليبي خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢١م، ٢٣١.

ولم يستطع الغزاة الإيطاليون تحطيم مقاومة القبائل إلا بعد مرور ١٣ عامًا أخرى، وقد تميزت العمليات الحربية التي كانت تجري في البلاد، في أنحاء متفرقة، بمقاومة عنيفة وبطولة فائقة أبداهما الشعب الليبي. ولم يكن بوُسْع القوات العسكرية الإيطالية إخضاع البلاد وإنجاز احتلال ليبيا واستعمارها إلا في عام ١٩٣٢، بعد مذابح جماهيرية كبيرة وتنكيلات وحشية بالقبائل المحبة للحرية[١].

كما أن الإجراءات الجديدة[٢] التي قام بها فولبي (١٩٢١ ـ ١٩٢٣م)، كانت تهدف إلى القضاء على حركة المقاومة المسلحة، وتوجيه ضربات قاسية للجماهير الشعبية تشل قوتها وتعجزها عن الحركة، وتجبرها بالتالي على الخضوع والتسليم؛ فبدأ العدُو يمارس ضغوطًا متزايدة على أفراد القاعدة الشعبية العريضة، تستهدف إفقارهم وإذلالهم وفقدان الاستقرار المعنوي في صفوفهم، فقد صُودِرت أملاك السكان في المناطق الريفية والزراعية، فكانوا ضحية للتجريد المستمر من الأراضي، وزاد الأمر سوءًا لجوء الفلاحين الفقراء إلى بيع أراضيهم، وإجبارهم على بيعها بأسعار زهيدة يحددها العدو، ودفَعَ هذا بهم إلى حالة التشرد والصَّعْلَكة، وفي المدن دفع بالسكان إلى البطالة والعوز والفقر، وهكذا فإن الأعداد الهائلة التي لبَّت

---

(١) فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكي: مرجع سبق ذكره، ٣٧٣.

(٢) لما رأى الكونت فولبي جدية نوايا قادة المجاهدين في السعي المتواصل للتصدي للقوات الإيطالية، هددهم بإعلان الأحكام العسكرية ومصادرة أملاك أعضاء هيئة الإصلاح المركزية وأموالهم، مع غيرهم من المجاهدين، في حالة قيامهم بمهاجمة القوات الإيطالية، مع سحب الأوسمة الفخرية التي كانت قد مُنِحت إلى البعض بين سنة ١٩١٢ و ١٩٢٠، مثل الشيخ محمد فرحات الذي كان قد حصل على وسام كوالير أوفيشالي، أي الفارس، في حين كان أحمد المريض قد حصل على وسام كوماندانور مقابل وسام كوالير (الفارس) إلى كلٍّ من علي بن تنتوش ومحمد الصغير شلابي وحسين بن جابر وفرحات القاضي ومحمد الصغير المريض ومحمد فكيني وحمد الأدغم وعبد الصمد النعاس والفيتوري الرمالي. لمزيد من التفاصيل انظر محمد أمحمد الطوير: الشيخ محمد فرحات الزاوي أحد قادة الجهاد الليبي ضد الغزاة الإيطاليين، ١١٦.

نداء الجهاد في المراحل الأولى أصبحت تعاني البؤس والذل بعد فقدان الأرض ووسائل العيش الكريم ، ولم تستطع حركة الجهاد استيعابهم ، نظرًا لعوامل كثيرة ، فقام العدو بضم أعداد من هؤلاء بصفتهم جنودًا مأجورين. ومنهم شكّل باندات[١] خربيش وخليفة الزاوي وغيرهما ، وهم الذين قدَّموا مجهودهم بصفتهم أيادي عاملة رخيصة لتنفيذ المشاريع الاستيطانية الإيطالية ، كذلك المشاريع العمرانية والصناعية التي تمت في ليبيا في أثناء مرحلة الاستعمار الإيطالي ، خاصة بعد انتهاء مرحلة الكفاح المسلح[٢] .

عندما جاء المدعُوُّ (غراتسياني) لبَرْقَة عن طريق باخرة بحرية ، أسس بمساعدة الشارف الغرياني الأسلاك الشائكة بطول الحدود مع مصر ، فضلًا عن فكرة تجميع الأهالي من أمساعد ووضْعهم في معتقل البريقة ، الأمر الذي جعل حالة الأهالي صعبة جدًا ، وتدهورت الظروف الاجتماعية للأهالي بسبب الظلم والاضطهاد ، ودخلت الفتيات أماكن الدعارة وأصبح الرجال الكرام بدون كرامة ، كما كان هناك شخص يُدعَى (شهاب الأشهب) من عائلة بن إدريس ، وهو من أتباع السنوسية ، كان عين (ماليتي) الصادقة ، ومعه أيضا بعض المساعدين له ، وهو شخص من عائلة الحاسة ، ومعه المدعو (موسى الشيلابي) ، والصبحي كان من أعوانه أيضًا ، ومن الأعمال التي قام بها المدعو شهاب أنه كان يقوم بإحضار النساء إلى ماليتي الذي ارتكب أعمالًا شنيعة ضد الأهالي ، وكوَّن له فرقًا وعيونًا من

---

(١) البندة هم جنود مرتزقة غير نظاميين ، وكثيرًا ما أُطلق عليهم الكُتاب (شراذم) ، لأنهم ليسوا من الجيش النظامي ولا من الشرطة ولا يتمتعون بحقوق الخدمة ، وفي العادة يخضعون لقيادة أفراد من أصل عربي أو يتكلمون العربية ، مثل عاكف أمسيك الغرياني (بندة عاكف) ، أو إبراهيم القريتلي (بندة القريتلي) . انظر يوسف سالم البرغثي : المعتقلات ، الندوة العلمية ، سبتمبر ١٩٨١، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣، ١٢٤.

(٢) حبيب وداعة الحسناوي : منشور كانيفا ، ٦١، ٦٢.

الأهالي المحتاجين وضعاف النفوس[١].

وها هي الشاعرة أم الخير ـ شاعرة المعتقلات ـ التي اعتُقِلت في معتقل البريقة بأمر من غراتسياني عام ١٩٣٠م، أنشدت قصيدة وصفت فيها وصفًا دقيقًا آلام رفاقها المعتقلين، وما تعرضوا له من مصائب وأهوال من أمراض وتعذيب ورمال محرقة وعجاج ثائر يعمي الأبصار، وفيها تتحدث بألم عن أذناب الإيطاليين الذين خانوا الوطن ومواطنيهم بانضمامهم إلى صفوف الإيطاليين جواسيسَ وجنودًا[٢].

وقد هاجمت الشاعرةُ (باريله) مرات عدة فكان يعذبها، وكاد في إحدى المرات أن يُقدِم على شنقها، ومما قالته فيه:

حكمك جاير يا باريله فن المال أورق العيله
جضينا مالحكم الجاير والسوط اللى ديمه عايل
ضديتك رعيان سلايل واتحارب فى ناس رعيه
ما سكنا فى بومختار اللى كاد أركان الحربية
سخر لك في الجو ثقيلة واقطع يدك يا باريله

إنها تواجهه وتقول له: (إن حكمك يا باريله حكم ظلم وجَوْر، وأهلكَ المواطنين وأفنى أموالهم، ولقد اشتدت أوجاعنا وعلا ضجيجنا بسبب قسوتك ولهيب سياطك الدائمة، وتصفه بالجبن والنذالة والهروب من مواجهة الفرسان البواسل بقيادة عمر المختار إلى حرب الأهالي العُزَّل من السلاح)[٣].

وهذه المقاومة للظلم والظالمين نجدها قائمة حتى ضد أفراد محدَّدين من أهل الوطن الخونة، وها هي الشاعرة أم الخير مرة أخرى تهاجم أحدهم وجها لوجه،

---

(١) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٨، مقابلة مع المجاهد المبروك مفتاح الهايف، ٨٩: ٩١.

(٢) عبد العالي أبو عجيلة جاد الله: أم الخير شاعرة معتقل البريقة، مجلة الشهيد، العدد رقم ٥، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٥، ١٦٢.

(٣) نفسه، ٣٠١.

قائلة له حين اشتد ضربه وإرهابه للمعتقلين :

تأخـــذ سو أبســـــيس

يا خـــــاطى القيـــــس

يا أفويهن دافل فيه أبليس

وأبسيس هو أحد المواطنين الذين عملوا مع الطليان ، لكنه اشتُهِر بعطفه وتعاونه مع أبناء وطنه ، أما ذلك الخائن الطاغي فقد قالت له : إن شراستك وخبثك ولؤمك ترجع إلى رابطة قوية بينك وبين إبليس ، وهي أنه بصَقَ في فمك فتطبَّعْت بطباعه الخبيثة من لؤمٍ وغدرٍ وخيانةٍ ، وما بصاقه في فمك سوى جرعة خبيثة أمدك بها ، لتقوية صفاتك الشيطانية[1] .

كما تورط مشايخ القبائل والزوايا ، الذين كانوا يمثلون الزعامات المحلية ، في اتفاقيات شخصية مع الطليان ، وعينوا مشايخ من قِبَلهم مرة أخرى ومنحوا رواتب وهدايا ، لكن الجماهير لم تمكِّنهم من تحقيق تلك الوعود وتنفيذ تلك الاتفاقيات ، الذين قال فيهم الشاعر عبد القادر العبار :

جماعة سلوق اللى مشايخ باقا ما يامنوا لختومهم فلاقة

لا يـــامـــنـــوا بـــالـــزور ولا يامنوا بختوم فاماتورى

هاذول ماطاعوا لعسكر نورى يا بال كاولير هووا سلاقا

كما قال أيضًا :

لا يـــامـــنـــوا بـــالـــتـــســـاكـــر ولا يامنوا بحديث حيلة عاكر

أوخاذ البنادقم التريس الساكر يخلي قلوب العارفين حراقا

ويصف الشاعر في هذه الأبيات المشايخ الذين انطلقوا من قرية سلوق بإذن من الطليان للاتصال بالمجاهدين وجرِّهم إلى الاستسلام ، بأنهم موظفون مع الطليان

---

[1] نفسه ، ٣٠٢.

مقابل مرتب ، وأن المجاهدين لن ينصاعوا لهم ولضمانات أختامهم المزورة ولا حتى لأختام سادتهم الطليان ، وأن المجاهدين سبق لهم أن عصوا أوامر عساكر نوري باشا التركي ، ومن السهل عليهم عدم طاعة أوامر راكب الحصان ، أي (الكاولير) الإيطالي ، وأعوانه الذين شبههم الشاعر بالكلاب . ويستطرد الشاعر في أبياته فيذكِّر بأن المجاهدين لا يثقون في الرسائل التي يحررها الطليان وأعوانهم بقصد طلب التصالح ، ويحث المجاهدين على التمسك بالبندقية التي يُعَدُّ أي تفريط فيها عارًا ومذلة تصيب قلوب العارفين بالحُرقَة والتحسُّر[١] .

كما حاول أحد الشعراء توبيخ أولئك المشايخ بقوله مستهزئًا :

عالسلامة ياشيخ شريف ما فيكم لا شيخ نظيف
منحاشن جاء هالخريف والشايب عارفكم غراق
امعاه على خيل معاكيف وعند الطليان فوارق
خليتوه اتقول ضعيف أبقيتوله كى بو فراق

ولم ينفك عمر المختار عن إسداء النصائح إلى تلك الفئة بأن تسلك مسلك الجهاد دون السماع إلى الوعود الإيطالية ، وكثيرًا ما أخذهم الطليان حجة ضد عمر المختار ، عندما تحصلوا على توقيعات أولئك المشايخ بأنهم يوافقون على إنشاء الأدوار المختلطة ، إذ يُبرِز الطليان توقيعات المشايخ بالموافقة ، وقد حمَّله الطليان مسئولية العصيان تلك وألصقوا به لقب عاصٍ[٢] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ فقد كان مديرو المربعات وشيوخ الأشواط ومدير المديرين في المعتقلات الجماعية من الليبيين ، ووُصِف بعضهم بأنهم أشداء على أبناء جلدتهم إظهارًا لإخلاصهم للفاشيست ، فكانوا يضربون الناس لأتفه

---

(١) يوسف سالم البرغثي : المعتقلات الفاشستية بليبيا دراسة تاريخية ، مراجعة د.صلاح الدين حسن السوري ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٥، ٦١.

(٢) نفسه ، ٦٢.

الأسباب ويسبون ويشتمون ويسخرون من أولئك البؤساء، حتى أنه ذات مرة دَفَعت الغيرة والحَمِيَّة أحد المعتقلين لضرب مدير الربع المدعو أقويدر البرعصي، الذي ألحق الإهانة الشخصية بأحد المعتقلين، بقوله: (يا كلب، يا حفيان، يا حمار). فكان أولئك من المديرين وشيوخ الأشواط شديدين على أبناء جلدتهم[١].

ووصفت الشاعرة معامَلَة تلك الفئة من المديرين وشيوخ الأشواط للمعتقلين بقولها:

حتى اللى ماو لابس كاكى هـابـه فـيـنـا يـا مـادار

وكان من ضمن عمل شيخ الشوط، ويُدْعَى (الكابوفيلا)، حصر سكان مجموعة الخيام المسئول عنها صباحًا ومساءً، ويقدِّمه إلى مدير الربع الذي يستدعِي من ثبت غيابه عن التمام إلى بوابة الربع التابع له، ويأمر شيخ الشوط بجلده مئة سوط أمام سكان ربعه[٢].

كما نددت الشاعرة بمعاملة شيوخ الأشواط السيئة للأهالي، فقالت معرِّضة بتلك الفئة من شيوخ الأشواط:

انزرعوا يا رعيـــــان الشـــوط
عليكم لانت المدير ولاذ السوط
تنوضو كيف اكلاب الغوط[٣]

ولقد تزامن مجيء شيخ الشهداء (عمر المختار) قائدًا لحركة الجهاد مع وصول الحزب الفاشيستي في إيطاليا، الأمر الذي ترتب عليه مواجهة المجاهدين أسلوبًا

---

(١) يوسف سالم البرغثي: المعتقلات، الندوة العلمية، سبتمبر ١٩٨١، ١٢٩.

(٢) يوسف سالم البرغثي: المعتقلات الفاشستية بليبيا دراسة تاريخية، ١١١، ١١٢.

(٣) نفسه، ١١٤.

جديدًا في الحرب، وعقلية متعصبة سعَتْ إلى تدميرهم والقضاء عليهم، وقد تمثلت سياسة الفاشيست تجاه المجاهدين في تطبيق ما يلي:

١ ـ لا مع الزعماء ولا ضد الزعماء، لكن بدون الزعماء.

٢ ـ تطبيق سياسة فرق تسد.

٣ ـ تطبيق النظام العسكري الفاشستي، القائل بضرورة القضاء على حركة الجهاد الليبي، بغض النظر عن الوسيلة والوقت والتكلفة.

من هذا المنطلق بدأ الفاشست يقدِّمون بعض الإغراءات لبعض الزعامات الليبية، حتى إذا تعاونت معهم أو ركنت إلى الهدوء غدروا بهم، وسيطروا على المقاومة، ثم قضوا على مَن ساعدها. هذا ما حدث ـ على سبيل المثال ـ للهادي كعبار؛ إذ سلَّم مدينة غريان في ١٧ من نوفمبر عام ١٩٢٢م دون مقاومة للإيطاليين، ثم شُنِق في مصراتة فيما بعد. كذلك كان الفاشست كثيرًا ما يعلنون العفو عن بعض المجاهدين إذا استسلموا لهم، وحين تتم عملية الاستسلام يُعدَم المستسلِم وتصادَر أملاكه، مثلما حدث لعبيدة بن زكري وأمحمد الدريدي والهادي كعبار، وغيرهم كثيرون[1].

وأيضًا لم تَسْلم أهالي الزاوية من غدر الإيطاليين الفاشست، فعقب عودتهم إلى مدينتهم عام ١٩٢٢، التي وجدوها محترقة من قبل الإيطاليين، وجدوا رجال الشرطة الإيطالية الكاربينيرى في انتظارهم عقب مباشرتهم رفع أنقاض ما هُدِّمَ وأُحْرِق بفعل الأعمال الانتقامية بأيام معدودة، دون النظر إلى عهد الأمان المقدَّم لهم من قِبَل القبطان (كاستريوطى) مدير الشرطة العسكرية الملكية بالزاوية، حيث تم القبض على كل مَن حمل السلاح في وجه الإيطاليين حتى ضاقت السجون

---

(١) عقيل محمد البربار: حركة عمر المختار في الجبل الأخضر، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨، ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

الإيطالية في الزاوية بهم ، فأُرسِل الكثير منهم إلى سجون طرابلس بالسرايا الحمراء وفورتي قرقارش ، بعد أن قُدِّموا إلى المحاكم العسكرية الصورية في الزاوية والعزيزية وطرابلس ، وكانت التهمة الموجهة إليهم هي تهمة الخيانة العظمى لإيطاليا ، سواء بحمل السلاح أو بالتحريض على حمله مما جعل الأحكام السريعة التي صدرت ضد المقبوض عليهم ، وهم أكثر من ٣٠٠ شخص ، تتراوح بين عقوبة الإعدام أو السجن المؤبد أو لمُدَد مختلفة تصل إلى ٣٥ سنة وأقل من ثلاث سنوات . وقد تم تنفيذ أحكام الإعدام عدة مرات بميدان الزاوية ، لكن أكبر مجموعة تم تنفيذ ذلك فيها يوم العاشر من ديسمبر عام ١٩٢٢، هي التي كانت تضم أبرز أعيان المنطقة ، مثل : محمد زكي مقيق ، وأعبيدة عبد الله المحجوبي ، وأمحمد الدرديري[١] .

وقد حاولت إيطاليا أن تعطي بعض الإغراءات لعمر المختار نفسه ، لكنها لم تفلح في تحقيق ما سعت إليه . وقد فشلت جميع محاولات الإيطاليين في استدراج المختار إلى الاستسلام ، وكانوا على استعداد أن يدفعوا أي شيء لهذا الغرض ، لكن عمر المختار كان يصر على شروط مفادها تحرير البلاد من الوجود الإيطالي ، وضرورة حضور مندوبين من الحكومة المصرية والتونسية في المحادثات[٢] ، وأيضًا عدم تدخل إيطاليا في الشئون الدينية للمسلمين ، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في الإدارات الإيطالية ، وتعيين الموظفين من الإيطاليين والعرب ، وافتتاح معاهد متخصصة لتدريس المواد الدينية ، وافتتاح المدارس التي تُعَلَّم فيها اللغتان العربية والإيطالية ، وحق الأهالي في الدراسة بالمعاهد العليا ، وإلغاء القانون الخاص باللامساواة في الحقوق بين الأهالي والإيطاليين ، ونقل إدارة الأوقاف إلى رجال الدين المسلمين ، وإعادة الممتلكات التي انتُزِعت من السكان لأصحابها ، وإعطاء

---

(١) محمد أمحمد الطوير : الشيخ محمد فرحات الزاوي أحد قادة الجهاد الليبي صد الغزاة الإيطاليين ، ١٢٦.

(٢) عقيل محمد البربار : حركة عمر المختار في الجبل الأخضر ، ٣٣٧.

الشعب حق انتخاب رئيس له ومجلس من الأعيان والسماح بحمل السلاح والسماح بإدخاله من خارج الحدود[١].

وقد وعد سيشيلياني نائب الحاكم بإعطاء الرد على شروط عمر المختار في ١٣ من يونيو ١٩٢٩م، وبعدها تم لقاء الحاكم بادليو وعمر المختار في سيدي رحومة، وقد وافق بادليو من الناحية المبدئية على شروط عمر المختار، لكن ذلك كله بقي مجرد كلام.

وبعد شهر تقريبًا تم اللقاء الثاني لعمر المختار مع نائب الحاكم، الذي أعلن أن بنغازي قد اختيرت لتكون مكانًا للقاء، وقد فوَّض عمر المختار حسن الرضا السنوسي لتوقيع الاتفاقية. وتمكن الإيطاليون من استمالة هذا الأخير إلى جانبهم فوقَّع اتفاقية لا تتضمن تلك الشروط التي كان عمر المختار قد اتفق عليها مع بادليو، وأَلزمت الشروط الجديدة للاتفاقية المجاهدين بالاستسلام الشامل وتسليم أسلحتهم، وقد رفض عمر المختار الاعتراف بهذه المعاهدة[٢].

إزاء هذا الفشل الإيطالي حاول الفاشست استدراج بعض الزعامات المحلية، بهدف تشتيت صف المجاهدين؛ فانشق الحسن الرضا السنوسي عن الدور بعد توقيعه لما عُرِف بصلح سيدي أرحومة في ١٩ من يونيه ١٩٢٩، وخرج معه ٣٠٠ من أتباعه وكوَّنوا معسكرًا تابعًا للإيطاليين بغوط الجل قرب مراوة، أَطلق عليه المجاهدون اسم (دور الدقيق)، إشارة إلى أن هذا الدور لا عمل له سوى تلقي المرتبات والتموين من الإيطاليين، واستمر هذا الدور من ١٥ من أغسطس ١٩٢٩م إلى ١٠ من يناير ١٩٣٠م[٣].

---

(١) نيكولاي إيلشتين بروشين: مرجع سبق ذكره، ٢٠٧.

(٢) نفسه: ٢٠٨.

(٣) المبروك الساعدي: النظم الحربية لدى عمر المختار، أعمال الندوة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، ط ٢، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م، ٩٧ ـ ٩٨.

واستطاعت إيطاليا من خلال مساعدة حسن الرضا، الذي سلَّم نفسه للإيطاليين في واحة جالو، أن تُعِد باسمه منشورًا خاصًا، يحتوي على دعوته المجاهدين إلى الكف عن المقاومة المسلحة وعدم الانصياع لأوامر عمر المختار، وقد قامت إيطاليا بتوزيع هذا المنشور بالطائرات في شهر يونيو عام ١٩٣٠، وعلَّلت إيطاليا هذا التصرف بأن المطلوب من السنوسية الالتفات إلى الأمور الدينية وعدم الخوض في حروب ضد السلطات الإيطالية[١].

وبتأثير من الحسن الرضا تيسَّر للإيطاليين تطويق الفرقة التي كان يرأسها (خالد أبو قليوان)، أحد زعماء المجاهدين وزميل عمر المختار، وتم تدميرها، وذلك لتحطيم إرادة المجاهدين في المقاومة بعد تجريدهم البدو من أسلحتهم ومصادرتها[٢].

ولقد عز على المجاهدين انفصام وحدة صفهم وما حل بإخوتهم الذين انصاعوا لحيَل عملاء إيطاليا وخداعها، مما جعل الكثيرين يجهشون بالبكاء أمام عمر المختار الذي وقف صامدًا كالجبل الأشم رغم فداحة النكسة[٣].

وأخيرًا، عندما فشلت إيطاليا في تشتيت جهود المجاهدين من خلال استدراج الحسن الرضا، ورغم مهادنته للطليان، لم يَسْلَم من بطشهم فانقضوا على الدور التابع له، وأسروا العدد الكبير من أفراده وزجُّوا بهم في سجن سيدي خريبش ببنغازي (السجن الكبير). وأُخِذ قائده الحسن الرضا أسيرًا إلى

---

(١) عبد العظيم مهيدي أحمد صميدة: العلاقات المصرية الليبية ١٩٤٥ - ١٩٧٣، ١٨.

(٢) المرجع نفسه، ١٧. وانظر أيضًا: نيكولاي إيلشتين بروشين: تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩، ٢١٠.

(٣) إدريس صالح الحرير: موقف خالدة لعمر المختار، أعمال الندوة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، ط ٢، طرابلس - منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م، ٧٣.

إيطاليا حيث تُوُفِّيَ هناك[١].

إن سياسة الإغراء والاستسلام لم تقف عند هذا الحد، بل لقد جندت إيطاليا بعض المرتزقة من الليبيين يقودهم (الوجيه عاكف بك، تركي الأصل)، بهدف نشر الرعب والقتل في طول البلاد وعرضها. لقد كان عاكف بك هذا ممن حاربوا الإيطاليين تحت إمرة أنور باشا في بداية الغزو الإيطالي، وكان يحمل رتبة يوزباشي في الجيش التركي، لكنه استسلم وانضوى تحت خدمة الإيطاليين فيما بعد، فكان على حد قول غراتسياني: (... وفي حرب طرابلس كان مخلصًا لنا ومثالًا في التفاني والشجاعة، له إلمام تام بمواقع برقة شبرًا شبرًا ...)[٢].

وإزاء فشل الإيطاليين في سياستهم لاستدراج المختار والمجاهدين إلى التسليم وعدم نجاح سياسة فرق تسد في تحقيق الهدف المرجو منها، رغم الأضرار الجسيمة التي ألحقتها بحركة الجهاد، التفت الفاشست إلى تطبيق نظام عسكري يقتضي القضاء على المقاومة مهما كلف الأمر، فأعدوا قوات كبيرة للقضاء على عمر المختار[٣].

معاملة المجاهدين للجواسيس ومصيرهم

يذكر جي. أف. أبوت أن معظم هؤلاء التعساء كانوا مهتمين فقط بالتجسس، وكان هناك نوع من العقاب يناله هؤلاء الجواسيس، وهو أن لدى العرب طريقة سريعة مع (البائعين) وهي الجلد بالعصي حتى يعترف الجاسوس بما يقوم به من خدمات للعدو، وربما يتم تحويل خدماته للمجاهدين، لأن كثيرًا ممن يَدفع لهم

---

(١) يوسف سالم البرغثي: المعتقلات الفاشستية بليبيا دراسة تاريخية، ٦٤. وأيضًا انظر: إدريس صالح الحرير: المرجع السابق، ٧٣.

(٢) عقيل البربار: المرجع السابق، ٣٣٨.

(٣) نفسه، ٣٣٩.

الطليان للتجسس عُرِف عنهم لعب أدوار مزدوجة[١].

ذكر المجاهد عقيلة أبو الجارد علي البرعصي أنه في معركة يوم الرحيبة، كان يتم القبض كثيرًا على أسرى ليبيين يعملون مع الطليان، يصل عددهم من عشرين إلى ثلاثين، كنا نأخذ أسلحتهم ونتركهم، وكثيرًا ما تصلنا منهم بعد ذلك الذخائر وبعض الأسلحة وكثير من الأطعمة أحيانًا، ويمدوننا بمعلومات خروج الإيطاليين أو أي باندة خونة نستعد لها، وبعد ذلك تغيَّر الوضع وأصبحنا مطارَدِين حتى من الأهالي الذين كوَّنوا باندات وأصبحوا يطاردون المجاهدين، وكان أحدهم اسمه السنوسي بوشغيلان، يسكن في الأبيار ومعه باندة، ومهمته مطاردة المجاهدين أينما وجدوا، لكن المجاهدين حاصروا الأبيار وقبضوا على السنوسي بوشغيلان وقَتلوا الفضيل، وأظهر السنوسي أنه مع المجاهدين، وأنه سيجمع السلاح ويكون معهم، وما أن اطمأن الحراس حتى فر ورجع إلى ضلالته الأولى[٢].

وبعد معركة الرحيبة التي وقعت في ٢٨ من مارس ١٩٢٧م، التي خسرها الإيطاليون وتم أسر أعداد كبيرة من المجندين الليبيين مع الطليان، بلغ عددهم أكثر من أربعمئة أسير، كان معظمهم من أبناء المناطق الساحلية، وعند استشارة ممثل الشريعة، الشيخ محفوظ الورفلي، بشأنهم أفتى بإعدامهم جميعًا، بدعوى أنهم حملوا السلاح ضد دين الله مع طائفة كافرة، ونفذ فيهم حكم الإعدام فورًا[٣].

---

(١) حي. أف. أبوت: الجهاد في طرابلس، ٢٠٥.

(٢) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٧، شريط رقم ٢٣، ١٣٠، ١٣١. مقابلة مع المجاهد عقيلة أبو الجارد البرعصي.

(٣) عقيل البربار: الأسس الاقتصادية والاجتماعية لحركة الجهاد، أعمال الندوة العلمية التي عقدت بالمركز بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣، ٨٩.

وعن اتصال المجاهدين ببعضهم، كان هناك في الدور ما يسمَّى بالكراكون (نقطة مراقبة) قبل الدور بمسافة، حيث توجد نقطة لمراقبة ١٠ أو ١٥ نفرًا على خيولهم في الحطب، وإذا ظهر العدو يأتي أحدهم يقول إنه ظهر، وبعده يأتي آخر ويقول لقد اتجه نحوكم أو ذهب إلى مكان آخر، لم يكن هناك هاتف بصفته وسيلة اتصال، بل كان الاتصال يتم عن طريق فرسان على خيولهم ويتصلون بالمنتجعات[١].

وعندما يحل الدور بمنطقة ما تُوضَع دورية في كل اتجاه لتراقب وضع القوات الإيطالية في تلك المنطقة، تعطِي أخبار تحركاتها للمجاهدين أولًا بأول حتى يكونوا على علم باتجاه العدو وتحركاته، وحين يلتقي أفراد الدورية بالأعداء يطلقون ثلاث طلقات، وعند سماع تلك الطلقات يستعد الجميع لملاقاة الأعداء في الجهة التي سُمِع منها إطلاق الرصاص. كما تقوم دوريات أخرى تُعرَف باسم (الرباط) بمراقبة الإيطاليين في مراكزهم التي يحتلونها للحصول على معلومات عن تحركاتهم عن طريق الأهالي الموجودين داخل تلك المدن، وكثيرًا ما يتعرض بعض هؤلاء الأهالي للعقاب بسبب تعاونهم مع المجاهدين، كما حدث مع سليمان بن سعيد العرفي قائد القوات المحلية وعضو مجلس النواب، الي أدانته المحاكم الإيطالية بالتعاون مع المجاهدين وحكمت عليه بالإعدام فأُعدِم شنقًا في قرية طلميثة (الدرسية) أمام الجميع[٢]، كما أُعدِم الشيخ حمد عبد ربه الدرسي في شحات بتاريخ ١٤ من يونيو عام ١٩٣٠م، بعد أن ثَبُت تعاونه مع إخوانه المجاهدين وكانت مخيماته استراحة لهم[٣].

---

(١) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٨، ١٥٥، مقابلة مع المجاهد محمد موسى عبد الله، منطقة رقم ١٣.

(٢) المبروك الساعدي: النظم الحربية لدى عمر المختار، ١٠٥، ١٠٦.

(٣) يوسف سالم البرغثي: المعتقلات، ١١٥.

بعد احتلال القوات الإيطالية منطقة الجبل الغربي اتجهت أغلبية القبائل الرافضة الوجود الإيطالي في ليبيا إلى المناطق الجنوبية، وكان من بين هذه القبائل قبيلة العميان. وفي أثناء سير هذه القبيلة إلى الجنوب وصلت معلومات من الشيخ أحمد البدوي يحذرهم من الوقوع في قبضة الحملة الإيطالية التي يقودها (غالياني)، وما أن وصل الخبر إلى المجاهدين حتى أرسلوا مجموعة من الشوافة (فرق الاستطلاع) ليتحققوا الأمر، فوجدوا مجموعة من الزوائد في قتال مع فرقة الاستطلاع الإيطالية، التي يقودها أحمد العياط، وكانت النتيجة سقوط أحمد العياط قتيلًا وجرْح أحد رفاقه، أما من جانب محلة الزوائد فقد استُشهِد أحد المجاهدين.

وبشأن فرقة الاستطلاع التابعة لقبيلة العميان، رجعت إلى قبيلتهم وأخبرتهم بما شاهدتْه، فقام زعماء القبيلة بوضع خطة لمواجهة الحملة الإيطالية التي تسير في اتجاه القبلة ولا تفصلها عنها إلا مسافات قصيرة، فوضعوا خطة مُحكَمَة تمثلت في وضْع النساء والشيوخ والأطفال في الوسط وطوَّقوهم بالإبل والصوف والتموين، بينما أخذ المقاتلون مواقعهم على هيئة دائرة بعد أن حفروا حفرًا صغيرة للاختباء، لأن الأرض مبسطة وليست فيها أشجار، وبدأت المعركة بين قبيلة العميان والطليان في ٩ من مارس ١٩٢٤م، التي عُرِفت بمعركة الطابونية، ولم تحقق أية نجاحات وقررت الانسحاب[١].

أما المهمة التالية التي وضعها الإيطاليون نصب أعينهم فكانت احتلال منطقة القبلة، حيث كانت تعيش ست قبائل[٢]. وقد استطاع الجنرال غراتسياني

---

(١) محمد علي التركي: معركة القبلة، ٢٧٦.

(٢) يتكون معظم سكان القبلة من الزنتان وأولاد بوسيف والمشاشة والجعافرة وأولاد بربك والقنطرار، بالإضافة إلى قبيلة المقارحة التي مقرُّها في وادي الشاطئ، وتتوغل شمالًا حتى الشويرف وأجزاء من أعالي وأواسط وادي بي الكبير، وقبائل أخرى صغيرة من الطوايين، وعكارة والمطرة والحدادة والمساكلية والغبابنة والعواتة والطلابة والرواونة والعليقات. انظر: أحمد عطية مدلل: مرجع سبق ذكره، هامش ٢٩٠.

وضباطه أن يستغلوا العداوة التقليدية بين تلك القبائل، فأشعلوا بينها نيران حرب قبلية كان مجاهدو بَرْقَة يسمُّونها مذبحة الأخ لأخيه، فالبربر قبائل «الميشاشي» و«الرينيه» وقسم من قبيلة أولاد بوسيف الذين كانوا يرتادون الجزء الشمالي من منطقة القبلة، كانوا في الواقع حلفاء للإيطاليين وكانوا يسمونهم (أدرينتي) أي أنصار الإيطاليين، وكان يُسْمَح لهم بحمْل السلاح والتنقل بحرية أكبر في البلاد. وكانت تُقَدَّم لهم المساعدات بين الفَيْنَة والفَيْنَة، وكان أعداؤهم أبناء الجزء الآخر من قبيلة أولاد بوسيف بالإضافة إلى قبائل الزنتان والرحيبات، الذين يرتادون جنوبي القبلة. وقد أخذ أنصار الإيطاليين يقومون برفقة الجنود الأجانب بشن الغارات على معسكرات الثوار، فيدمرون منازلهم ومزروعاتهم[1].

كما أن الطليان كان عندهم مَن يقوم بجمع المعلومات عن المقاومين، وعيونهم من الليبيين، خاصة من الذين يصابون بالجوع فكانوا يذهبون إلى الطليان ويعملون معهم. وعن مصير أي جاسوس يعمل لصالح الطليان أو الليبيين فإن عقوبته الإعدام من الطرفين، إلا إذا رأى أحد الطرفين أن هناك فائدة من استغلال هذا الجاسوس لصالحهم، وحدث ذات مرة أنه تم القبض على رجل لعائلة القيصة، قيل إنه يعمل جاسوسًا لصالح الطليان[2].

وهذ يؤكد أن الإيطاليين كانوا يعوِّلون في حربهم ضد المجاهدين على عملائهم من الليبيين، فنجاح عملياتهم تتوقف إلى حد بعيد على مدى إخلاص أولئك العملاء لهم[3].

---

(١) نيكولاي إيلشتين بروشين: مرجع سبق ذكره، ٢٠٢.

(٢) موسوعة روايات الجهاد الشفوية، مجلد رقم ٢٨، ١٥٦. مقابلة مع المجاهد محمد موسى عبد الله، منطقة رقم ١٣.

(٣) محمد علي التركي: معركة القبلة، ج ٢، طرابلس ـ ١٩٨٤، ٢٤٢.

ويذكر جي. أف. أبوت أنه كان هناك شرطيان من أهالي طرابلس، فعندما قرر الأتراك إخلاء العاصمة أبلغوا الشرطة أن يفعلوا ما يَرُوق لهم: التخلف لخدمة الحكومة الجديدة، أو أن يذهبوا لديارهم، فعدد كبير جدًا من هؤلاء المساكين اعتَبروا ـ مثلما فعل الجميع وقتذاك ـ أن حكم السلطان قد وصل إلى نهايته، فقرروا البقاء، إلا أن حال هذين الرجلين كانت عجيبة؛ كانا يستطلعان برفقة ضابط إيطالي خارج خنادق عين زارة في الساعات الأخيرة لليلة السادس والعشرين من ديسمبر عام ١٩١٢م، عندما لمحتْهم جماعةٌ من ثلاثين أعرابيًا كانت تقوم بالمهمة نفسها، فغضب المجاهدون عندما شاهدوا مؤمنَيْن في زي الكفار، غضبًا كان بلا حدود، لكنهم ـ وهم يتَّسِمون بضبط النفس الذي يُظْهِرونه أحيانًا ـ قرروا أخذهم أحياء، وزحفوا في صمت إلى مدى قصير منهم وأطلقوا النار، قاتلِين الضابط الإيطالي، لكنهم ما أصابوا إلا حصانَي الشرطيَّيْن، فسقط الأخيران، واندفع العرب للأمام، فأسروا الراكبين، واقتادوهما للعزيزية، وبعد استجوابهما من قِبَل القائد العام وضباط الأركان الذين عقدوا محكمة عسكرية يعاونهم فرحات بيه الزاوي، كانت القضية واضحة المعالم، فقد أُلقِيَ القبض على المسجونَيْن متلبسين، وفي الاستجواب الدقيق بررا فعلهما بأنهما خدما العدو لأن لديهما أسرًا تحتاج الطعام، ولم يشفع لهم ذلك، فقد نُفِّذ فيهما حكم الإعدام شنقًا[1].

وفي مقابلة مع المجاهد محمد سعد طاهر، ذكر أن كثيرين تعاونوا مع الطليان، لكنني أعرف واحدًا يُدعَى أبا الشهاوي كان وكيلًا للإيطاليين في قمينس، وأن الذين كانوا يتجسسون لصالح الطليان كان من أجل الحصول على المال، وأن مصير أي جاسوس يتجسس لصالح العدو القتْل، وذات مرة وجد (المجاهدون)

---

(١) جي. أف. أبوت: الجهاد في طرابلس، ٢٠٥: ٢٠٧.

شخصًا يُدعَى عبد الرجال غرباوي، يشتري الشاي من البريقة ويحمله للطليان، قبضوا عليه وشنقوه لأنه يخدم العدو[١].

وفي مقابلة مع المجاهد عبدالله يونس بوزيد، ذكر أنه إذا أمسك المجاهدون جاسوسًا لصالح الطليان فإنهم يقتلونه، وحصل أن السيد محمد الرضا أمر بالقبض على أحد أفراد العائلة السنوسية، وهو السيد هلال، وفعلًا قبضوا عليه وأتَوْا به إلى الدور حيث بقِيَ في خيمة حسن الظريف[٢]. وكان لمحمد هلال هذا ـ وهو شقيق أحمد الشريف ـ بعض الاتصالات بالإيطاليين في طبرق لكن لغايات شخصية، ولم يعجب سلوكه هذا محمد إدريس والأتراك، ولدى عودته قُدِّم محمد هلال للمُثُول أمام محكمة سنوسية قضت عليه بالسجن المؤبد[٣]، إلا أنه تمكَّن من الهرب من الجغبوب في مارس ١٩١٧م، ووضع نفسه تحت حماية السلطات الإيطالية في طبرق[٤].

وهذه الخيانة من جانب أحد زعماء السنوسية قد ترتب عليها:

١ ـ من الناحية السياسية إضعاف مركز السيد إدريس السنوسي العسكري من ناحية، وقوته السياسية في المساومة في أثناء المفاوضات الإنجليزية الليبية من ناحية أخرى.

٢ ـ من الناحية الأخلاقية الإقلال من نفوذ العائلة السنوسية وهيبتها في نظر البدو، خاصة بعدما اندمج السيد هلال مع الضباط الطليان ومارس حياة من

---

(١) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٨، ١٧٤، ١٧٥. مقابلة مع المجاهد محمد سعد طاهر، منطقة رقم ١٣.

(٢) نفسه، مجلد رقم ٢٨، ١٤٨.

(٣) جاك بيشون: المسألة الليبية في تسوية السلام، ترجمة علي ضوى، مراجعة د.صالح المخزوم، ط ١، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١، ١٦٤.

(٤) نفسه، ١٧٨.

العَرْبَدة والفسق وشرب الخمر[١].

ومما لا شك فيه أنه منذ هذا الوقت، كان هناك تنافس بين أحمد الشريف ومحمد إدريس الذي آلمه أن يكون قد اضطر في الماضي إلى التخلي عن الزعامة، بسبب صغر سنه لأحمد الشريف[٢].

وفي السابع من شهر فبراير ١٩٢٦م تمكن العقيد رونكيتي المنطلق من طبرق على رأس طابور آلي جزئيًا، مكوَّن من ألفَيْ رجل من احتلال الجغبوب بعد مسيرة دامت ستة أيام. وكان الإيطاليون في أثناء هذه العملية متأكدين من تعاون محمد هلال شقيق أحمد الشريف، وكذلك من تعاون الشارف باشا الغرياني، وقد عُيِّنَ هذا الأخير في الحال حاكمًا للجغبوب ومديرًا لزاويتها. وباحتلال الجغبوب من الناحية العملية أصبحت تحت يدي القيادة الإيطالية كل حدود البطنان، بَدءًا من البحر إلى مناطق الكثبان، وهو ما أتاح لها مراقبة الصحراء الليبية والحدود المصرية[٣].

وقد تمت الإفادة من الشارف الغرياني على أوسع نطاق، وتمكن الإيطاليون بواسطته من الدخول إلى الجغبوب دون قتال، ثم إرساله لأتباعه إلى الكفرة، ونجح في إثْناء بعض سكانها عن المقاومة، وكان تعاوُن هؤلاء مع الإيطاليين لتحقيق مصالح شخصية وحماية لأنفسهم وأتباعهم، ضاربين عرض الحائط بمصالح الوطن والمواطنين[٤].

---

(١) هنري أنيس ميخائيل: العلاقات الإنجليزية الليبية، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠، ٦٦.

(٢) جاك بيشون: المرجع السابق، ١٦٤.

(٣) نفسه، ١٧٨.

(٤) يوسف سالم البرغثي: حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢م)، ط ١، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٠م، ١٣٨.

وذات مرة قَبض المجاهدون على شخص وقُتِل ضربًا بالرصاص في الدور، لأنه جاء لجمع معلومات حول الدور، ونفذوا فيه حكم الإعدام وهو شاب صغير لعائلة القيصة، خبأ تصريحه بين طبقات صندله الذي كان يرتديه، ومع الضرب أقر واعترف بعد أن استجوبه محمود أبو هدمة قائد الدور، وبعدها أمروا بشنقه، وكانت كل قبيلة واقفة في طابور المجبري على حِدَةٍ، والزوي على حدة، والمغرب على حدة، وطابور السوادين على حدة، وبعد أخذ رأيهم وضعوه وضربوه بالرشاش بعد أخذ أقواله[1].

وفي مقابلة مع المجاهد عبد السلام سعد أحمد الفرجاني، الذي كان مقاتلًا في صفوف المجاهدين في معركة سواني بن يادم، حيث كانوا مع القائد رمضان السويحلي، خرج عليهم القريتلي الذي كان يقاتل في صفوف الإيطاليين وكان معه حوالي ١٥٠ مقاتلًا، واستطاع المجاهدون أن يلقوا القبض عليهم، ونقلوهم إلى القائد رمضان السويحلي في مصراتة، وكان عدد المقاتلين الليبيين في صفوف الطليان من هؤلاء الأسرى حوالي ١٢٠ مقاتلًا، وتم بعد ذلك إعدام بعضهم، والبعض الآخر استُبدِل بهم أسرى مجاهدون وقعوا في قبضة الطليان[2].

وبعد ذلك اشتبك المجاهدون مع الإيطاليين، وحققوا انتصارًا باهرًا في معركة الكراريم بشرقي مصراتة، وذلك عندما أسروا أحد قادة المجندين علي القريتلي الي حُوكِم في السدادة، وصدر ضده حكم الإعدام شنقًا ونُفِّذ فيه على الفور، الأمر الذي ترتب عليه قيام إيطاليا بمهاجمة زعماء هيئة الإصلاح المركزية التي لم تستطع الاستمرار في الصمود خلال العام التالي، أمام ازدياد مهاجمة القوات الإيطالية

---

(١) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٨، ١٩٠: ١٩٢. مقابلة مع المجاهد أحمد مهنى الصديق عيسى، منطقة رقم ١٣.

(٢) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٧، ١٤١.

لها ، خاصة عقب احتلال ورفلة[١] في شهر ديسمبر عام ١٩٢٣، مما دفع بأعضاء الهيئة المذكورة ومَن كان برفقتهم من المجاهدين إلى الهجرة في اتجاهات مختلفة ، سواء إلى داخل ليبيا أو خارجها ، فهاجر أحمد المريض والمبروك المنتصر إلى مصر ومَن معهم مِن الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا من أتباعهم ، البالغ عددهم حوالي ٢٠٠ شخص[٢] .

مساعدة الجواسيس للمجاهدين

لقد أحس بعض المجندين الليبيين بوخز الضمير ، وعادوا للمجاهدين بسلاحهم وخيولهم ، وأصبحوا عونًا للقوات المقاتِلة فوق الجبل الأخضر بقيادة عمر المختار[٣] .

وكان معظمهم يساعد المجاهدين دون أي تردد ، وبمجرد أن تتهيأ الفرصة الملائمة كانت الأسلحة والملابس العسكرية الإيطالية ، بل حتى المرتبات أحيانًا ،

---

(١) تم تشكيل الحملة الإيطالية على ورفلة على النحو التالي :

ـ قوات الجبل بقيادة الجنرال غراتسياني ، وتتكون من ٤٠٠٠ بندقية و٥٣٠ فارسًا و٤ قطع مدفعية .

ـ القوات الشرقية بقيادة الكلونيل متزني ، وتتكون من ٥٣٠ فارسًا و٤ قطع مدفعية و٣٥٠٠ بندقية .

ـ قوات ماريوتي ، وتتألف من ١٣٠ فارسًا و٨٥٠ بندقية وقطعتيْ مدفع .

ـ قوات ماليتي ، وتتكون من ٨٠٠ بندقية .

ـ قوات فولبيني ، وتتكون من ٥٠٠ بندقية و٥٠ فارسًا .

ـ قوات غلياني ، وتتكون من ٢٥٠ بندقية و٩٠ فارسًا .

ونستطيع أن نتبين مدى الأهمية التي كان يوليها الإيطاليون لهذه الحملة ، التي جردوا لها كل هذه الإمكانيات الضخمة التي لا تتكافأ في واقع الأمر مع إمكانيات المجاهدين المحدودة . انظر : محمد المرزوقي بن عبد النبي بلخير داهية السياسة وفارس الجهاد ، ١٦٠.

(٢) محمد أمحمد الطوير : الشيخ محمد فرحات الزاوي أحد قادة الجهاد الليبي ضد الغزاة الإيطاليين ، ١٣٤.

(٣) يوسف سالم البرغثي : حركة المقاومة بالجبل الأخضر ، ١٤٢.

تقدَّم إلى المجاهدين . أما فرار البدو من الجيش الإيطالي بكل ما لديهم من ذخيرة فلم يكن ظاهرة نادرة على الإطلاق . وعلى هذه الصورة كانت الكتائب المشكَّلَة من الأهالي المورد الدائم للسلاح والتموين والاحتياطي من الرجال[١] .

وبعد أن ثبت بالدليل القاطع لدى الإيطاليين أن المجاهدين يحاربونهم بسلاحهم نفسه الذي كانوا يتحصلون عليه غنائم في أثناء المعارك ، أو ما يصلهم من هدايا ومساعدات من أقربائهم وإخوانهم الخاضعين للسلطات الإيطالية ، ثبت لدى المخابرات الإيطالية أن المجندين الليبيين بالجيش الإيطالي كانوا يتعاطفون مع بني جلدتهم المجاهدين ويمدونهم بالأسلحة ، ويتبرعون بمرتباتهم زكاة ، مما جعل السلطات الإيطالية تشك في نوايا تلك الفئة ، حيث لاحظ غراتسياني أن المدعو سليمان سعيد العرفي رئيس الدوريات المحلية له اتصالات خفية بعمر المختار في وادي الباكور ، فأقدمت السلطات الإيطالية على تغيير نوع السلاح المستعمَل من قِبَل الجيش الإيطالي حتى لا يستفيد المجاهدون بالذخيرة ، وكبَّد ذلك الإجراء الخزانة الإيطالية الخسائر المادية الفادحة وتعرَّض غراتسيانى إلى اللوم الشديد من قبل المسئولين في روما[٢] .

عندما تكتشف السلطات الإيطالية أي شيء من هذا القبيل تكون عقوبته المصادرة ثم الإعدام للقائمين عليه ، كما حدث للمواطن محمد الحداد من بنغازي الذي كانت تتم عن طريقه الإمدادات من المؤن والأسلحة ، فأعدمت السلطات الإيطالية الأب والابن بناء على قرار المحكمة الطائرة[٣] ، لقد أسهم هؤلاء المواطنون

---

(١) نيكولاي إيلشتين بروشين : مرجع سبق ذكره ، ١٩٩.

(٢) يوسف سالم البرغثي : حركة المقاومة بالجبل الأخضر ، ١٤١.

(٣) ابتكر القائد الفاشستي غراتسياني المحكمة الطائرة ، وأنشأها في أبريل عام ١٩٣٠م ، وهي محكمة عسكرية كان يتنقل أعضاؤها بالطائرة ، إلى حيث يُلقَى القبض على مَن يُعرَف أنه ساعد أحدًا من المجاهدين ، أو اشترك في عمل عدائي ، وكانت المحكمة تأخذ بالظن وتحاكِم محاكمة صورية وتُصدِر=

الخاضعون للحكم الإيطالي في تمويل المجاهدين[١] .

ويقول غراتسياني : (العرب الخاضعون لحُكْمنا يمدون الثوار بكل شيء : رجال ، وسلاح ، ومؤن ، وأموال . كذلك المشايخ ندفع لهم الرواتب ، يزيدون عليها قيمة الأعشار ويبعثونها إلى الثوار من أجل تمويل الجنود التابعين لقبيلتهم . كذلك الموظفون يدفعون الأعشار من رواتبهم)[٢] .

كما كان المجندون الليبيون يقومون بإيصال المعلومات إلى المجاهدين عن تحركات العدو وعن خططه ، فها هو أحد المجندين يترنم بأغنية شعبية ، لا بقصد الطرب ، بل بقصد تنبيه المجاهدين لما يُحَاك لهم من مؤامرات إيطالية ، بُغْيَة اجتياح معسكراتهم المختلطة في أثناء الليل والقضاء عليهم ، فيقول : (الجار ما ايخون الجار ... وحنا جارنا خاينيه) ، فتنبه المجاهدون إلى ما يقصده ذلك المجند ، وعندما قُرْب وقت تنفيذ الكمين الإيطالي حاول ذلك الحارس أن يخبر المجاهدين بخطورة الموقف ، فقال :

اصحوا يا رقود الليل جاكم السيل أو غمكم

أي أن الخطر مُحْدِقٌ بكم ، وأن الإيطاليين سيقومون بتنفيذ مخططهم ، وكان من المحتمل أن تكون النهاية المحققة لجنود الأدوار المختلطة ويتم القضاء عليهم لولا تنبيه ذلك الحارس للمجاهدين ، وقد أفشل هذا المجند الخطة الإيطالية ، كما أن أولئك المجندين الذين أرغمتهم ظروف الحاجة ، نظرًا لسياسة التجويع الإيطالية ،

=الحكم في التو وتنفذه في الحال ، وقد فَصلت هذه المحكمة خلال المدة من إنشائها حتى شهر مارس ١٩٣١م في ٤٠٠ حادث ، كان عدد المتهمين في تلك الحوادث ٧٠٠ شخص ، مُثُلَ منهم أمام المحكمة ٤٤٨ متهمًا ، إذ إن بعض المتهمين تمكنوا من الفرار ، وقد أصدرت المحكمة أحكامها بالإعدام والسجن ضد ٢٥٠ من الذين مثلوا أمامها . انظر : المبروك الساعدي : النظم الحربية لدى عمر المختار ، ١١٠.

(١) عقيل محمد البربار : الأسس الاقتصادية والاجتماعية ، ٨٢.

(٢) نفسه ، ٨٣.

على الانخراط في صفوف القوات الإيطالية، قد أفادوا كثيرًا المجاهدين، وأطالوا عُمْر حركة المقاومة الوطنية، فهرب عدد منهم بأسلحتهم وخيولهم والتحقوا بالمجاهدين، وعلى سبيل المثال هرب ١٩ شخصًا من إحدى الكتائب الإيطالية خلال مدة ١١ شهرًا، كما كانوا يمدون المجاهدين بقطع الغيار الصالحة لبنادقهم ويضعون القطع التالفة بالبنادق المستعملة لديهم، ويقومون بإخفاء تلك البنادق بالمخازن الإيطالية، وكانوا هم المصدر الوحيد والمهم للذخيرة بالنسبة للمجاهدين، حيث كانوا يقومون في أثناء حدوث أية معركة ضد المجاهدين بإطلاق عدة أعيرة نارية بالهواء، ويلقون بباقي الذخيرة بالأرض، ويتظاهرون بالتراجع والانسحاب، فيقوم المجاهدون في جنح الظلام بالبحث عن تلك الذخيرة بموقع المعركة[١].

وقد أثبت ذلك حسن الرضا السنوسي الذي أكد للإيطاليين أنه في أثناء المعارك كان الجنود الليبيون يتركون على الأرض الذخيرة والعتاد والأسلحة مبعثرة، وبعد انتهاء المعركة يتسلل المجاهدون في أثناء الليل ويستحوذون على هذه الذخيرة والعتاد من أجل استعمالها ضد الإيطاليين[٢].

في إطار إيجاد حلٍ لمعضلة التعاون بين المجندين والأهالي من جهة، والمجاهدين من جهة أخرى، فكّر الإيطاليون في إحضار بعض المجندين من بين المواطنين بالمناطق الغربية والجنوبية التي تم إخضاعها بالكامل مع نهاية سنة ١٩٣٠م، وذلك كي يضمنوا عدم وجود أية رابطة كالمصاهرة أو القرابة بين المجندين والأهالي بمناطق الجبل الأخضر وبرقة، فكانت فرقة عاكف أمسيك الغرياني وفرقة إبراهيم القريتلي وغيرهما ممن استطاعوا تقديم الخدمات الجيدة في سبيل تحقيق الأهداف الإيطالية في القضاء على عنصر التعاون بين المجاهدين والمجندين[٣]، وقد عوَّل

---

(١) يوسف سالم البرغثي: حركة المقاومة بالجبل الأخضر، ١٤٣.

(٢) عقيل محمد البربار: الأسس الاقتصادية والاجتماعية، ٨٩.

(٣) يوسف سالم البرغثي: حركة المقاومة بالجبل الأخضر، ١٤٦.

غراتسياني كثيرًا على مجهودات بندة عاكف وبندة القريتلي ، وقام بتسريح العديد من المجندين بالجيش الإيطالي من أبناء المنطقة ليتخلص من عقدة وصول الأسلحة والذخائر والمعلومات إلى المجاهدين ، وقد جعل غراتسياني حيازة الأسلحة جريمة عقوبتها الإعدام ، وقام بعدة حملات واسعة لنزع جميع الأسلحة من أيدي الأهالي المستسلمين ظاهريًا للسلطات الإيطالية[١] .

دور الجواسيس في القبض على المجاهد الكبير عمر المختار

يتميز الجبل الأخضر بكثافة أشجاره ووعورة سطحه ، حيث الجبال المتنوعة والصخور المتناثرة والأودية العميقة المتشابكة ، وكان هذا سلاحًا ذا حدين ، فهو بالنسبة للإيطاليين يُعَدُّ مشكلة معقدة ، يصعب من خلالها استعمال الآلات الثقيلة والعربات والمدافع ، وهو بالتالي عامل ساعد المجاهدين على التخفي والمباغتة والتطويق ، ومناسب أيضًا لاستعمال البندقية التي لا يمتلك المجاهدون سواها ، وهو مهم أيضًا في إثارة الرعب والفزع في نفوس الإيطاليين من خلال مجموعات قليلة من المجاهدين موزعة على جهات مختلفة[٢] .

ومنذ أن وطئت أقدام غراتسياني منطقة الجبل الأخضر في ٢٧/ ٣/ ١٩٣٠م أصبح المجاهدون يعانون من ضخامة القوات الإيطالية الجرارة التي بلغت حوالي ١٣ ألف جندي ، وأيضًا قيام غراتسياني بتكليف عدد من الجواسيس بمتابعة تحركات المجاهدين ، وأفادت المجموعة المكلَّفَة بمراقبة دور العبيدات والحاسة ، بقيادة القائمقام الفضيل أبي عمر نائب عمر المختار بالدور المذكور ، أن المجاهدين يعسكرون بضواحي قرية القبة ، فيما تفيد الروايات أن أحد المجاهدين تقدَّم إلى

---

(١) نفسه ، ١٤٧.

(٢) أحمد عطية مدلل : مرجع سبق ذكره ، ٩٧.

الفضيل بوعمر يطلب السماح له بالذهاب من القبة حيث يعسكر الدور بالدبوسية، لزيارة أهله وإحضار المؤن والأسلحة من شحات، وفعلًا سمح له الفضيل بوعمر بعد أن جمع له النقود، واصطحب المعنيُّ معه أربعة مجاهدين، كان من بينهم المجاهد أحميدة أبو عمر الحاسي، وعقب وصول المجاهد المذكور إلى شحات طلب من رفقائه البقاء بمكان محدد قرب شحات حتى يعود إليهم، لكنه لم يعد مجاهدًا بل عاد على رأس القوات الإيطالية. وتنبه المجاهد أحميدة أبو عمر الحاسي إلى الخديعة، وكلَّف أحد أتباعه بالاتصال بعمر المختار وإخباره بالخيانة التي تمت[1].

لكنَّ المبعوث كان غير أمينٍ، فتخلف بعض الوقت بنجع لمودة وهو في طريقه إلى الدبوسية مقر الدور، وإذ بالإيطاليين تقودهم مجموعة الجواسيس تتحرك قواتهم التي كانت بقيادة الرائد (راغاتسي) نحو وادي بدهاش، وفق تعليمات قسم المخابرات، فيما تم تجنيد (٢٠٠) من الأهالي لتعزيز القوات النظامية، وتم نقل هؤلاء المجندين بالسيارات من شحات إلى القبة، وكان الاشتباك مع المجاهدين بالدبوسية فيما عُرِف بمعركة الأثرون الأولى يوم التاسع عشر من سبتمبر عام ١٩٣٠م عند الفجر، وعلى حين غِرَّة من أمرهم، حيث كانوا لا يتوقعون الخيانة المُرَّة، التي اكتسبت مرارتها من أن الجواسيس كانوا مع المجاهدين في السابق، ويعرفون خططهم المتعلقة بنقاط الحراسة والمراقبة وتوزيع الحراسات، فقادوا القوات الإيطالية دون أن يتعرضوا إلى مواقع الدوريات، وحاصروا الدور، بل تمكنوا من الدخول وسط جموع المجاهدين وهم نائمون، وكانت المفاجأة، وجُرِح الفضيل بوعمر واستُشهِد خمسة من المجاهدين[2].

---

(١) يوسف سالم البرغثي: المرجع السابق، ٢٣٩.

(٢) نفسه، ٢٤٠.

لكن كانت المفاجأة المذهلة لقوات غراتسياني عندما ظهر الدور من جديد شمال وادي الغريب، وانساب بوديان قرية بطة، وكانت القوات الإيطالية المتحركة من مواقعها في المرج وتاكنس وزاوية العرقوب تجوب المنطقة في يوم ٧/ ١٠/١٩٣٠م، بحثًا عن المجاهدين، فيما وصلت المعلومات إلى الإيطاليين في يوم ٨/١٠/١٩٣٠م عن طريق أحد الجواسيس[١] الذي تم القبض عليه من قبل المجاهدين في أثناء وجوده بالقرب من معسكرهم في وادي السانية، واقتيد الجاسوس إلى الدور وتظاهر بالبكاء، وقال: «إنني ندمت على فعلتي وتركي للمجاهدين، وها أنا عدت لأبقى معكم»، وصدَّق الجميع أكذوبة ذلك الرجل، وعند المساء هرب الجاسوس بعد أن سرق حصان المجاهد عثمان الشامي قائمقام دور البراعصة والدرسة، واتصل بالإيطاليين بطلميثة وأخبرهم أن المجاهدين موجودون بموقع وادي السانية، فيما قرر عمر المختار الرحيل من الموقع فور علمه بما حدث من الجاسوس، وعَلِم المجاهدون بوجود القوات الإيطالية قرب موقع الدور في الصباح الباكر، فترصدوا لها في محاولة لفتح ثغرة في صفوف العدو، وكانت معركة عنيفة كان خلالها الاشتباك بالسلاح الأبيض، وأصيب جواد عمر المختار، وسقطت نظارته ذات الأجنحة الذهبية، وفقَدَ ختمه الخاص، واستيقظ غراتسياني من أحلامه عندما سُلِّمَت له نظارة عمر المختار فجُنَّ جنونه، وازداد شراسة وحمقًا وأصدر منشورًا قال فيه: (... تحصلنا على نظارة عمر المختار وغدًا رأسه ...)[٢].

---

(١) وهو طاهر المهير البرعصي، كان ضابطًا مع أحمد الشريف، وانضم للطليان وعمل مع الاستخبارات الإيطالية، ووشى بالمجاهدين، وهو السبب في اعتقال عمر المختار. انظر: موسوعة روايات الجهاد الشفوية، مجلد رقم ٢٧، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١، ١٩، ٢٠. مقابلة مع المجاهد جبريل موسى البرعصي، شريط رقم ٣.

(٢) يوسف سالم البرغثي: المرجع السابق، ٢٥٠: ٢٥٣.

وقد تحقق لغراتسياني ما أراد، بفضل مجموعة من الجواسيس الذين كانوا يتابعون عن بُعد حركة الدور ويرصدون حلَّه وترْحَاله، وحالما انتبهوا إلى وجود عمر المختار بعد أن تم لهم ذلك عن طريق التنصت في أثناء الليل، بينما كان الدور يعسكر بموقع وادي الكوف قرب مزرعة كهف الدرقوش جنوب ضريح سيدي عبد الواحد حاليًا، رسم الجواسيس خطتهم بحيث يبقى أحدهم يراقب تحركات المجاهدين، فيما يعود الشخصان الآخران إلى البيضاء وإبلاغ السلطات الإيطالية بذلك، وعلى الفور، في سرية تامة، تحرَّكت قيادة الجيش الإيطالي بقواتها من بطة وجردس الجراري ومراوة وبئر قندولة، واتجهت تلك القوات يوم ١٩٣١/٩/١٠م إلى الموقع تقودها مجموعة الجواسيس في محاولة لتطويق الدور والإحاطة به من كل جانب، وما أن طلع الفجر ليوم ١٩٣١/٩/١١م[١] حتى تم القبض على المجاهد الكبير عمر المختار، وتم تجريده من السلاح ومن حقيبته الخاصة، وصُفِّدَت يداه بالسلاسل وركب الحصان أسيرًا من دون ركاب وكانت الحراسات من حوله[٢]. فَجِيء به إلى بنغازي، حيث جَرَتْ له محاكمة حضرها غراتسياني الذي قطع إجازته وعاد من أجل ذلك. وقد اتَّهمت المحكمة عمر المختار بالنشاط المعادي لمصالح الدولة وأمن البلاد، وحُكِم عليه وهو في السبعين من عمره بالإعدام شنقًا في ١٦ من سبتمبر عام ١٩٣١م بمنطقة سلوق بحضور ٤٠ ألفًا من البدو، الذين جمعهم الطليان من المناطق المجاورة، أما جثمانه فدُفِن بصورة سرية خوفًا من هيجان شعبي جديد[٣].

وكان لإعدام عمر المختار وقْع أليم في نفوس العرب والمسلمين، فقد استنكروا هذا التصرف البعيد عن القيم الأخلاقية والإنسانية.

---

(١) نفسه، ٢٦٧.

(٢) نفسه، ٢٧٤.

(٣) نيكولاي إيلشتين بروشين: مرجع سبق ذكره، ٢١٢.

وقد رثاه المرحوم أحمد شوقي بقصيدة طويلة، معدِّدًا مآثر البطولة لدى عمر المختار، فقال:

خُيِّرتَ فاخترْتَ المبيتَ على الطوَى ... لم تَبنِ جاهًا أو تَلُمَّ ثراءَ
إن البطولةَ أن تموتَ من الظما ... ليس البطولةُ أن تعُبَّ الماءَ
إفريقيا مهْدُ الأسودِ ولحْدُها ... ضجَّتْ عليك أراجلًا ونساءَ
والمسلمون على اختلافِ ديارِهم ... لا يملُكونَ مع المُصابِ عزاءَ
في ذمةِ اللهِ الكريمِ وحفْظِهِ ... جسدٌ ببرقةَ وُسِّدَ الصحراءَ[1]

وبعد استشهاد عمر المختار وقع الاختيار على يوسف أبو رحيل، ليرأس وحدات المجاهدين التي لم يكن عددها يزيد آنذاك عن الـ ٧٠٠ مجاهد، وظل المجاهدون يواصلون غاراتهم على مدى أربعة أشهر، فاضطر الإيطاليون لتجريد قوات كبيرة ضدهم، وراحوا يضيِّقون عليهم الخناق مثلما سدوا جميع المنافذ دون استثناء، ودب الخلاف بين المجاهدين، واتضحت أهمية وجود قائد مهيب كعمر المختار. وقرر يوسف أبو رحيل وعبد الحميد العبار أن يَنفُذا عبر الأسلاك الشائكة ويبحثا عن ملاذٍ آمن في مصر، أما بقية المجاهدين فبقَوا في الجبال مقضيًا عليهم بالهلاك جوعًا أو برصاص الغزاة[2].

وبعد استشهاد المجاهد الكبير عمر المختار قامت السلطات الإيطالية بتسخير كل المعتقلين لبناء مشاريع استيطانية إيطالية، مثل إنشاء الطرق ونقل الحجارة وتكسيرها مقابل نصف كيلو شعير للفرد العامل، واضطر الجميع للالتحاق بالعمل حتى يحصلوا على قُوتِهم، وهكذا تم تحقيق الشعار الفاشستي الذي يقول:

---

(١) انظر مرثية أمير الشعراء أحمد شوقي بالملحق الأول المنشور في العدد الخاص عن أعمال الندوة العلمية التي عقدها مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، ط ٢، طرابلس ١٩٨٣م، ١٧٣: ١٧٥.

(٢) نيكولاي إيلشتين بروشين: مرجع سابق، ٢١٣.

(معاملة الخاضعين لسلطتنا بكل شدة لدرجة تجويعهم حتى الخيط الرفيع من الحياة)، ولقد تناول المعتقلون وضعهم هذا في عدة أشعار خلَّدت تلك الذكرى الأليمة من سنوات الاعتقال، فقال جلغاف بوشعراية:

محابيس في نقطة سلوق ابقينا لا نعجة لا ناقة تحوش علينا
في نقطة سلوق قعدنا بالفأس نخدموا ولدهر ما ساعدنا
في نقطة سلوق فقارا بالفأس نخدموا من غير واخذ اجار[1]

ولقد أدت كل هذه الإجراءات الإيطالية التعسفية مجتمِعةً إلى تقويض الأسس الاقتصادية والاجتماعية لحركة المقاومة، وأصبح المجاهدون في وضع سيئ جدًا، فصارت هجماتهم على القوات الإيطالية سريعة وانتحارية يتكبدون فيها خسائر بشرية جسيمة، ثم جاء اعتقال عمر المختار واستشهاده فأسهم في غياب القيادة، في كسر معنويات المجاهدين، فانتهت المقاومة المسلحة في شهور قليلة بعد استشهاد شيخ الشهداء[2].

وفي ٢٤ من يناير ١٩٣٢ أعلن بادوليو الحاكم العام في ليبيا، في تصريح رسمي، نهاية المقاومة في ليبيا، اعترف فيه: «أنه للمرة الأولى، بعد عشرين عامًا من نزولنا بهذه الأرض، قد تم احتلال المستعمرتَيْن طرابلس الغرب وبرقة وتهدئتهما»[3].

بعد ذلك قامت إيطاليا بمصادرة مساحات كبيرة من أراضي برقة وطرابلس، وسحبها من أصحابها وإعطائها للمستعمرين الإيطاليين، والسماح لهم بإقامة المزارع الكبيرة وأيضًا إقامة الصناعات ومد شبكة من المواصلات لخدمتها، خاصة

---

(١) يوسف سالم البرغثي: المعتقلات، ١٣٦.

(٢) عقيل محمد البربار: الأسس الاقتصادية والاجتماعية، ٩١.

(٣) عبد العظيم مهيدي: مرجع سبق ذكره، ١٨.

في المناطق الشمالية الساحلية[١] .

مصير الخونة بعد هزيمة إيطاليا

أمَّا أولئك الخونة الليبيون الذين شاركوا في نصب المشانق الجماعية ، وتعذيب إخوانهم الليبيين وتشريدهم والزجّ بهم في المعتقلات الرهيبة ، فإن إيطاليا كما قالت الشاعرة أم الخير :

أو يندم اللى وأخذ معاهم صوله بعد طغوته يطرب على رفقانا

لم تنفعهم بعد اندحارها وانهيارها ، ولم يجدوا من مُعين سوى أبناء وطنهم الذين قابلوا الإساءة بالإحسان وغفروا لهم خطاياهم ، وها هم اليوم يستمتعون بالعيش في وطنهم مواطنين أحرارًا ، بل قد خَصصت لهم ثورة الفاتح من سبتمبر بعض المزارع عند قيامها بإجلاء بقايا المستوطنين الإيطاليين عن الأرض الليبية[٢] .

الخاتمة

وضح من خلال الدراسة أنه كانت هناك أنماط مختلفة من التعاون مع الإيطاليين ؛ بَدءًا من السلبية والابتعاد عن المشاركة الفعالة في صفوف المقاومة ، حتى التعاون الوثيق مع القوات الإيطالية على هيئة أدلاء ومخبرين وموظفين إداريين . وقد قَسَّمت السلطات الإيطالية أهالي البلاد وفق طريقتها الفاشية المعتادة إلى مستسلمين وعصاة . وكانت تَعقد آمالًا خاصة على هؤلاء البدو المستسلمين باعتبارهم حلفاء لها في صراعها ضد الوطنيين ، وقد دخل كثير من البدو سلك

---

(١) JACQUES COULAND, *L'eveil du monde arabe, editions sociales.* Paris 1964, p.49.

(٢) عبد العالي أبو عجيلة : أم الخير شاعرة معتقل البريقة ، ٣٢١.

الجيش أو الشرطة الإيطالية من أجل أن يكسبوا لقمة العيش .

وعلى الرغم من كل الحيَل التي استخدمها الإيطاليون ، خاصة استخدامهم الجواسيس من أبناء الشعب الليبي ، وتجنيدهم لنقل المعلومات عن المقاومين ، وكيفية تحركاتهم للتصدي لهم ومعرفة أساليبهم القتالية ، حتى تجنَّب الجيش الإيطالي الخسائر الكبيرة التي كان يتكبدها جراء صدامه مع القوات الوطنية الليبية المجاهدة ، فإن الطليان استطاعوا عن طريق حيلهم السيطرة على الشعب الليبي واستخدام كل الطرق لإذلاله والنيل من كرامته ، لكنَّ الغزاة الطليان لم يستطيعوا تحطيم مقاومة القبائل إلا بعد مرور ٢٠ عاما أخرى ، وقد تميزت العمليات الحربية التي كانت تجرِي في البلاد بمقاومة عنيفة وببطولة فائقة أبداهما الشعب الليبي . ولم يكن بوُسْع الطغمة العسكرية الإيطالية إخضاع البلاد وإنجاز احتلال ليبيا واستعمارها إلا في عام ١٩٣٢، بعد مذابح جماهيرية كبيرة وتنكيلات وحشية بالقبائل المقاتِلة ، وبعد أن استطاعت أن تبث الفرقة بين رؤساء القبائل والزعماء الوطنيين ، وبعد القضاء على المجاهد الكبير شيخ الشهداء المناضل عمر المختار الذي كان لأسْرِهِ والقبض عليه وإعدامه أثر كبير على حركة المقاومة الليبية ، ومنذ ذلك أصبحت إيطاليا حرة طليقة في ليبيا ، تفعل ما تشاء من أفعال ، ولا أحد ينازعها في ذلك . كما وضح من خلال الدراسة أن كثيرًا من أبناء الشعب الليبي الذين استسلموا للطليان أو عملوا جواسيس وعيونًا لهم ، وأيضًا مقاتلين في صفوف الأعداء ضد بني وطنهم ، أحس البعض منهم بوخز الضمير وعادوا للمجاهدين بسلاحهم وخيولهم ، وأصبحوا عونًا للقوات المقاتلة وتصدوا للطليان ، وكانوا خير عَوْنٍ لإخوانهم لمعرفتهم بأساليب الطليان الحربية ، فعملوا في كثير من المواجهات والمعارك على دَحْضِ خططهم لمعرفتهم المسبَقَة بها من خلال عملهم جنودًا مع الإيطاليين .

لكن حتى الأشخاص الذين كانوا متَّهمين بأحط أنواع التعاون والعمالة مع الإيطاليين ، كانوا يقدِّمون العون إلى المجاهدين كلما سنَحَتْ لهم الفرصة ، خاصة

إذا كانت بينهم صلة قرابة، وكان معظمهم يساعد المجاهدين دون أي تردد، فكانت الأسلحة والملابس العسكرية الإيطالية، بل حتى المرتبات أحيانًا، تُقَدَّم للمجاهدين، كما كان فرار البدو من الجيش الإيطالي بكل ما لديهم من ذخيرة وسلاح يمثِّل المورد الدائم لسلاح المجاهدين.

ولم تنتهِ محاولات الإيطاليين في تحطيم مقاومة الأهالي، بالتهديد والوعيد ولا بالوعود السخية إلى أية نتائج إيجابية. لذلك قرروا عزْل الجبل الأخضر عن بقية أجزاء البلاد، وقطعوا جميع خطوط إمدادات المجاهدين بالسلاح والذخائر.

كذلك ترتب على القضاء على حركة المقاومة الليبية أن احتلت إيطاليا الأراضي الليبية كافة، وقامت الحكومة الإيطالية بنزع ملكية الأراضي بحجة الاحتياجات العامة، وبمصادرة أراضي الثوار لتُعْطَى للمستعمرين الإيطاليين. وأيضا ترتب على ذلك أن هاجَرَ كثير من الليبيين إلى مصر وإلى تونس وبلاد الشام، من أجل ملاذ آمن في هذه البلاد.

لقد تناول بعض الكُتَّاب الليبيين شأن القيادات الوطنية بين الاتهام والتبرئة، لكن هل من المصلحة ألا تخضع أحكامهم لدراسة معمَّقة وبدون أية رؤية ومعرفة دقيقة لبعض فترات المقاومة؟

إن المدقِّق في تاريخ حركة المقاومة الوطنية ضد الغزو الإيطالي يلاحظ أن بعض الزعماء قد اختلفوا فيما بينهم، بسبب بعض المصالح المتضاربة أحيانًا، وأحيانًا أخرى بسبب اختلاف وجهات النظر في كيفية التعامل في مواجهة الاحتلال الإيطالي لبلادهم، فكان لذلك بعض النتائج السلبية على حركة المقاومة الليبية، وعلى الرغم من ذلك فقد كان لبعضهم الآخر مواقفه المشرِّفة في حركة المقاومة في أثناء العدوان الإيطالي على ليبيا، طوال فترة المقاومة التي استمرت أكثر من عشرين عامًا.

وقد فطن بعض الوطنيين إلى الخطر الكامن وراء انعدام توحيد القيادة، لكن بعد فوات الأوان، وقد نتج عن ذلك تشعُّب في المواقف، واختلاف في وجهات

النظر، فرأينا بعض الزعماء يعارِضون المقاومة المسلحة لإيطاليا عقب احتلالها البلاد، ورأينا آخرين يقفون على الحياد ويعلنون الاستسلام، كأن الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد، ورأينا بعضهم يتمسك بأن يكون هو صاحب الكلمة النهائية في إبرام الهدنة، نظرًا لأن الاعتداء واقع على أراضيه. وهكذا وضحت مواقف الزعماء في كثير من الحالات على أساس جهوي أو قبلي، لكل قبيلةٍ أو جهةٍ زعيم يتولى أمرها ويقرر مصيرها ويحدد موقفها. وقد ترتب على ذلك تعريض مواقف الزعماء وشخصياتهم لأن تكون عُرْضة للشك والريبة، ولا شك في أن هذه الزعامات بما جرَّتْه من فتن وصراعات ومنافسات واتهامات وانقسامات فيما بينها، كانت نكبة كبرى على مقدرات الوطن الليبي الذي عبث بها الاحتلال الإيطالي.

في النهاية ألا تثير هذه الحقائق والأفعال التي استخدمها الطليان ضد الشعب الليبي الحقد والكراهية والاشمئزاز بما فيه الكفاية؟ وهل يمكن أن يَنسى مَن احتُلَّتْ ديارهم واغتُصِبَت أراضيهم ذلك الاحتلال المقيت الذي سلبهم حريتهم وإرادتهم بسبْي نسائهم وقتْل أطفالهم وإهانة شيوخهم؟ ! لقد وضح سلوك غزاة ليبيا ووحشيتهم وقسوتهم وسوء إدارتهم للبلاد، وبثهم الفُرْقة بين أبناء الشعب الواحد، كي يحققوا أمجادهم على حساب معاناة الشعوب وأنين الأطفال والنساء ومعاناة الرجال.

المصادر والمراجع

أولًا : الوثائق المنشورة

موسوعة روايات الجهاد الشفوية ، مجلد رقم ٢٧، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١.

موسوعة روايات الجهاد الشفوية ، مجلد رقم ٢٨، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١.

موسوعة روايات الجهاد الشفوية ، مجلد رقم ٣٥، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩٦.

ثانيًا : المراجع العربية والمعربة

أحمد عطية مدلل : المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي وتأثيرات الأوضاع الدولية عليها أغسطس ١٩١٤ ـ أبريل ١٩١٥، مراجعة د.عقيل محمد البربار ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٩.

إدريس صالح الحرير : مواقف خالدة لعمر المختار ، أعمال الندوة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار سبتمبر ١٩٨١، ط ٢، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م .

المبروك الساعدي : النظم الحربية لدى عمر المختار ، أعمال الندوة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار ، سبتمبر ١٩٨١، ط ٢، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م .

جاك بيشون : المسألة الليبية في تسوية السلام ، ترجمة علي ضوي ، مراجعة د.صالح المخزوم ، ط ١، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١.

جورج ريمون : من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا ، نقله عن الفرنسية وحققه وقدم له محمد عبد الكريم الوافي ، ط ٢، القاهرة ـ دار الفرجاني ١٩٨٢.

ج. ف. أبوت : الحرب المقدسة في طرابلس الغرب ، ترجمة عبد الحفيظ الميار ، القاهرة ـ دار الفرجاني ١٩٩٣.

ج. ف. أبوت : الجهاد في طرابلس ، ترجمة د.عبد القادر المحيشي ، مراجعة د.محمد عبد الوهاب سيد أحمد ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٠م .

حبيب وداعة الحسناوي : منشور كانيفا : ملاحظات أولية حول الأبعاد الأيديولوجية للسياسة الاستعمارية الإيطالية تجاه العرب الليبيين ، مجلة الشهيد ، العدد الرابع ، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م .

عبد الرحمن عزام : كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية ، ترجمه عن الألمانية د.عماد الدين غانم ، مجلة الوثائق والمخطوطات ، العدد الأول ، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٥.

عبد العالي أبو عجيلة جاد الله : أم الخير شاعرة معتقل البريقة ، مجلة الشهيد ، العدد رقم ٥، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٥.

عبد الله على إبراهيم : آثار صلح لوزان على حركة الجهاد ، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي (١٩١١ ـ ١٩٤٣م) ، ج ٢، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨.

عقيل محمد البربار : الأسس الاقتصادية والاجتماعية لحركة الجهاد ، أعمال الندوة العلمية التي عقدت بالمركز بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م .

عقيل محمد البربار : حركة عمر المختار في الجبل الأخضر ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨.

عمرو سعيد بغني : حركة الجهاد الليبي خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢١م ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨.

فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ترجمة د.عفيفة البستاني ، مراجعة يوري روشين ، موسكو ـ دار التقدم ١٩٧١م .

محمد المرزوقي : عبد النبي بلخير داهية السياسة وفارس الجهاد ، ليبيا ، تونس ـ الدار العربية للكتاب ١٩٧٨م .

محمد أمحمد الطوير : الشيخ محمد فرحات الزاوي أحد قادة الجهاد الليبي ضد الغزاة الإيطاليين ، ط ١، مصراتة ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ١٩٩٣م .

محمد علي التركي : معركة القبلة ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨.

نيكولاي إيلشتين بروشين : تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩، ترجمة وتقديم د.عماد حاتم ، مراجعة د.ميلاد المقرحي ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٨.

نيكولاي إيلشتين بروشين : تاريخ ليبيا في العصر الحديث (منتصف القرن السادس عشر ـ مطلع القرن العشرين) ، ترجمة وتقديم د.عماد حاتم ، سلسلة الدراسات المترجمة ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١.

هنري أنيس ميخائيل : العلاقات الإنجليزية الليبية ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠.

يوسف سالم البرغثي : المعتقلات ، الندوة العلمية سبتمبر ١٩٨١، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣.

يوسف سالم البرغثي : المعتقلات الفاشستية بليبيا دراسة تاريخية ، مراجعة د.صلاح الدين حسن السوري ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٥م.

يوسف سالم البرغثي : حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢م) ، ط ١، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٠م.

المذكرات الشخصية

أورخان قول أوغلو : مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا ، ترجمة وجدى كدك ، مراجعة د.عماد حاتم ، طرابلس ـ منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩.

جميل عارف : صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام ، ج ١، القاهرة ـ المكتب المصري الحديث ١٩٧٧م.

مذكرات أنور باشا في طرابلس الغرب ، تقديم وترجمة عبد المولى صالح الحرير ، مراجعة حبيب وداعة الحسناوي ، طرابلس ـ منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩م.

مذكرات جيوليتي : الأسرار السياسية والعسكرية لحرب ليبيا ١٩١١ ـ ١٩١٢م ، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي ، ط ٣، مصراتة ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ١٩٨٦.

المراجع الأجنبية :

JACQUES COULAND, *Leveil du monde arabe, editions sociales.* Paris 1964.

JEAN-PIERRE DERRIENNIC: *Le Moyen-Orient Au XX e siècle,* Seconde edition, Paris 1993.

الرسائل الجامعية

عبد العظيم مهيدي أحمد صميدة : العلاقات المصرية الليبية ١٩٤٥ ـ ١٩٧٣، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنيا ، ١٩٩٧.

تنويه

نظرًا لأن البحث يتناول بعض الأشخاص الذين ينتمون لبعض العائلات الليبية ، ويشير إلى اتهام أفراد منها بالجاسوسية أو العمالة مع الإيطاليين ، أود الإشارة إلى أن هذا ليس من باب التشهير ، لكن الأمانة العلمية في كتابة الأبحاث تُحتِّم ذِكْر أسماء هؤلاء الأشخاص ، إلى جانب أن هذه الأسماء المذكورة تم نقلها من خلال المقابلات الشخصية التي سُجِّلت في روايات الجهاد الشفوية التي قام بتدوينها مركز الجهاد الليبي ، ودُوِّن بالهامش رقم الشريط واسم المجاهد الذي تمَّت معه المقابلة الشفوية ، إلى جانب بعض الكتابات التي تناولت حركة المقاومة الليبية في مواجهة الاستعمار الإيطالي ، وهي في غالب الأحيان لكُتاب ليبيين .